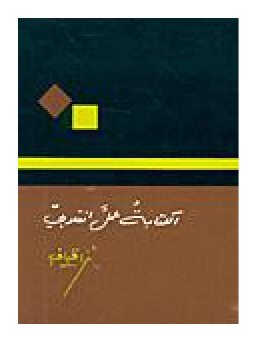


الكتابة عمل إنقلابي

نزار قباني

الطبعة الأولى

١٩٧٥

منشورات نزار قباني

بيروت

مجموعة مقالات نُشرتْ في
مجلة (الأسبوع العربي) خلال
أعوام١٩٧٣ ، ١٩٧٤، ١٩٧٥

الكتابة عمل انقلابي

الشرط الأساسي في كل كتابة جديدة هو الشرط الانقلابي. وهو شرط لا يمكن التساهل فيه، أو المساومة عليه.

وبغير هذا الشرط، تغدو الكتابة تأليفاً لما سبق تأليفه، وشرحاً لما انتهى شرحه، ومعرفة بما سبق معرفته.

الكتابة الحقيقية، هي نقيض النسخ، ونقيض النقل، ونقيض المحاكاة الزنكوغرافية أو الطباعية.

فالقصيدة الجيدة هي النسخة الأولى التي ليس لها نسخة ثانية سابقة لها أو لاحقة بها. يعني أنها زمان وحيد هارب من كل الأزمنة.. ووقت خصوصي منفصل كلياً عن الوقت العام.

القصائد الرديئة هي القصائد التي تعجز عن تكوين زمنها الخصوصي فتصبّ في الزمن العام..

وتضيع.. كما تضيع مياه النهر في البحر الكبير.
إن الشعراء في عالمنا العربي هم بعدد حبات الرمل.. في الصحراء العربية، ولكن الذين استطاعوا أن يخرجوا من المألوف الشعري إلى اللامألوف ..ويطلقوا في السماء عصافير الدهشة.. ويقيموا للشعر جمهورية لا تشبه بقية الجمهوريات.. يعدّون على الأصابع..
بالشرط الإنقلابي نعني خروج الكتابة والكاتب على سلطة الماضي بكل أنواعها الأبوية، والعائلية، والقبلية، وإعلان العصيان على كل الصيغ والأشكال الأدبية التي أخذت _ بحكم مرور الزمن _ شكل القدر أو شكل الوثن.
وبالشرط الانقلابي، نعني الغاء جميع حلقات الذِكْر التي كان ينظمها دراويش الكلمة.. ومتعهدو حفلات الأدب.. ويدورون فيها حول ضريح لا يوجد فيه أحد..
ومهمة الكاتب الانقلابي صعبة ودقيقة.. لأنها تتعلق بإلغاء نظام قائم، له جذوره الدستورية، والتاريخية ، والقومية، واللغوية، وإعلان نظام بديل يصعب على الناس في بادئ الأمر الإيمان به، والاعتراف بدستوريته.
ويظل الكاتب الانقلابي يثير الدهشة.. حتى تصبح الدهشة عادة ثانية لا تثير حماس الناس ولا خيالهم.. فيبدأون في البحث عن انقلابي آخر.. يحرك طفولتهم.. ويرميهم في بحر الانبهار والمفاجآت من جديد..
وكما يكون الانقلاب السياسي في بدايته غامضاً، ومضطرباً، وحائراً بين الحلم وتجسيده.. كذلك يكون الانقلاب الأدبي في بدايته قلقاً، وانفعالياً ، ومتوتر الأعصاب.. بانتظار الاعتراف الشعبي والاعتراف بالكتابة الجديدة يأخذ وقتاً طويلاً ..لأن من الصعب كسر عادات الناس، وتغيير غرائزهم الكلامية المكتسبة بين عشية وضحاها.
ولكن الاعتراف بالكلام الجديد، والكتابة الجديدة، هو قضية وقت لا أكثر ..لأن أهم ما في الإنسان أنه حيوان قابل للتحول والملاءمة مع كل المناخات.. وكل درجات الحرارة..
ولقد تأكد لي، بعد ثلاثين عاماً من التجارب الشعرية، أنه لا يوجد إنسان عربي محافظ حتى الموت.. كما أنه ليس هناك إنسان عربي _ مهما زهد ولبس الصوف _ لا يطيب له أن يخلع عباءته وخفيه، ويلبس بدلة من عند (تيد لا بيدوس) أو ربطة عنق من تصميم (بيار كاردان..(
والشعر العربي الحديث هو هذا التصميم غير المألوف الذي ضحك منه الجمهور العربي في الاربعينات.. وأصبح الآن يرتديه ليلاً ونهاراً دون أن يشعر بعقدة الذنب.. أو عقدة (الخواجه) كما يقول أهل مصر..

الفرق بين رأس الانسان وحبة الفاصولياء.. أن حبة الفاصولياء محكومة بقوانين فصيلتها النباتية لا تستطيع أن تتمرد عليها أو تتجاوزها. في حين أن رأس الانسان صندوق سحري مليء بالاحتمالات والمفاجاءات...

في حياة حبة الفاصولياء لا يحدث إنقلاب يغير مجرى حياتها.. فهي منذ أن كانت ، لها ذات الشكل، وذات الأوراق، وذات الطعم. إنها لا تنتمي إلى حزب، ولا تسير في مظاهرة، ولا توزع منشوراً سياسياً... فهي تولد .. وتكبر.. وتموت.. بنفس الطريقة.

أما رأس الانسان فهو رحم لا تعرف ماذا يخرج منه.. وماذا يحدث فيه.. وما هو نوع المخلوقات التي تتشكل بداخله..

ولأن رأس الانسان بحكم حرية اختياره، هو مجموعة من المجاهيل، فإ، الحياة تنتظر منه أن يبدع، ويجدد، ويخرج عن سلسلة العادات والقوانين التي تتحكم بنمو الشجر.. وسقوط المطر وهبوب الريح.

بكلمة واحدة. على الكاتب الذي يحترم نفسه، ويحترم الآخرين أن لا يكون حبة فاصولياء..

كيف لا يكون حبة فاصولياء؟

بإلغاء ذاكرته.

إن علة الشعر العربي الكبرى هي أن ذاكرته قوية .والذاكرة بصورة عامة خطر على الشعر، لأنها سهم متجه إلى الوراء.. لا سهم ذاهب إلى المستقبل.

نحن لا نكتب. وإنما نمارس مجموعة من العادات الكتابية.

ولا نقول الشعر. وإنما نتذكر..

إن النسيان عامل هام جداً في عملية الابداع. والقصيدة التي لا تستطيع نسيان طفولتها، لا تملك القدرة على تصور مستقبلها.

هناك ألف سنة على الأقل من تاريخ الشعر العربي كان فيها هذا الشعر يصدر عن ملكة التذكر.. شاعر نابت كالنخلة في الصحراء، يقدم النموذج _ الأم ثم تبدأ عملية صك النقود.. وتطرد العملة الجيدة.. ويستولي النظامون والنساخون وأصحاب ماكينات الأوفست.. على الحكم...

الذاكرة الميكانيكية هي عاهة الشعر العربي، سواء كانت هذه الذاكرة قومية، أو تاريخية، أو أكاديمية مدرسية.

لأن الذاكرة في نهاية الأمر، هي تعليب الأشياء بحالتها الأولى.. وتجليدها في حرارات واطئة جداً كما تجلد اللحوم والأسماك..

لقد أكلنا خلال خمسمئة سنة من عصور الانحطاط سمكاً مجلداً.. حتى تسممنا بمادة الزئبق، وأصيبت بلاغتنا بفقر الدم.. وأهم ما فعله الشعر العربي الحديث من حسنات أنه أنهى تجارة السمك المجلد.. واتجه إلى البحر..

الكتابة الجديدة هي التي تتخذ من البحر نموذجاً لها.

فالبحر هو النموذج الانقلابي الأمثل، حيث الماء يثور على وضعه في كل لحظة.. ويناقض نفسه في كل لحظة.. ويفقد ذاكرته في كل لحظة...

أن تكون كاتباً عربياً، في هذه المرحلة الساخنة بالذات، دون أن تؤمن بالشرط الانقلابي.. معناه أن تبقى متسولاً على رصيف لطفي المنفلوطي.. وأبواب المقاهي التي يقرأ الراوي فيها قصة عنترة والزير وأبي زيد الهلالي..

وأن تكون كاتباً عربياً، في هذا الوطن الخارج لتوه من غرفة التخدير والعمليات، دون أن تؤمن بالشرط الانقلابي، معناه أن تبقى حاجباً على باب السلطان عبد الحميد في الآستانة ...أو عضواً في حكومة الأقلية البيضاء في جنوبي أفريقيا.. أو وزيراً بلا حقيبة في حكومة المحافظين في انكلترا...

إن المكان الطبيعي للكاتب العربي المعاصر، هو في صفوف الانقلابيين. ومهما اختلفت المواقف الوجودية بين كاتب وكاتب.. وتباينت الرؤى بين شاعر وشاعر.. فإن القاسم المشترك بين كل من يكتبون.. هو الثورة.. والرغبة المشتركة في تغيير جلد العالم العربي.. وتغيير دمه..

هذا هو الهدف العام الذي تركض باتجاهه كل الخيول . وإن اختلفت طريقة الركض وأسماء الجياد..

٧ – ١٠ – ١

ساعة الشعر.. وساعة الصحافة

يريدني الصديق أسعد المقدم، رئيس تحرير "الأسبوع العربي"، أن يكون لي زاوية ثابتة أطل منها على القراء كل أسبوع.
والكتابة للصحافة ليست مشكلة جديدة بالنسبة إلي، فأنا منذ قدومي إلى لبنان، أتلقى العروض لدخول هذا العالم الخرافي الذي هو الصحافة، ولكنني كنت دائماً أطوي العروض بابتسامة مؤدبة .. وأهرب بريشتي.

كانت غريزة العصافير عندي تمنعني من دخول الأقفاص، وكانت غريزة الخيول تمنعني من مغادرة المراعي الخضراء، والبراري المفتوحة، لأتحول إلى حصان أهلي يجلس على مكتب.

لكن حاستي السادسة كانت تحميني من التورط، وكنت كلما أوشكت أن أضعف يقرع جرس الإنذار في داخلي، فأدور إلى الوراء نصف دورة.. وأرجع راكضاً إلى حضن حبيبتي "الحرية ."

لقد كنت مقتنعاً ، قبل أعوام، بأن الشعر يجب أن يبقى ماءً جارياً، لا ماءً معبأً في زجاجات، وأن الشاعر إذا ارتبط بعجلات المطبعة افترسته المطبعة، وطحنت أصابعه بأسنانها.

كما كنت مقتنعاً بأن الشاعر مصنوع من مادة شفافة وسريعة الإنكسار. وأن ظهوره اليومي أمام الناس سيمسح صورته الخرافية المطبوعة في مخيلة الناس. وبالتالي فإن على الشاعر أن يكون برقاً يعرف متى يظهر، ومتى يختفي، لا شمساً افريقية تثقب جماجم الناس اثنتي عشرة ساعة كل يوم.

إن "توقيت الشعر" هو غير "توقيت الصحافة". فساعة الصحافة ساعة سويسرية بمنتهى الدقة والانضباط، في حين أن ساعة الشعر ساعة مزاجية تتقدم ألف سنة إلى الأمام.. وترجع عشرين قرناً إلى الوراء.. وتبقى مقتنعة بأنها على صواب، وأن كل ساعات الدنيا غلط!

غير أني ما لبثت أن اكتشفت أن الشاعر لا يمكن أن يبقى كصورة" الموناليزا" مبروزاً.. ومعلقاً

من رقبته على حائط متحف، ومنتظراً أفواج السائحين لتتفرج عليه!
كما اكتشفت أن شعر الشاعر لا يعبر إلا عن عشرة في المئة من فكره، أما التسعون في المئة الباقية فلا تقال إلا نثراً.

إن دور الشاعر المغني قد انتهى.. وهذا العصر لم يعد يبحث عن شاعر يحرك فيه غريزة الطرب. ويهز له سريره حتى ينام... ولكنه يبحث عن شاعر يؤرقه، ويثير أعصابه ، ويغرز في جلده دبوساً من نار.

وعلى هذا الأساس قبلت دعوة صديقي أسعد المقدم للكتابة في "الأسبوع العربي". فلا تنتظروا مني أن أكون منشداً يساعدكم على النوم، بل انتظروا مني أن أقص أرجل السرير الذي ينام عليه العالم العربي منذ خمسمئة سنة.. فربما إذا اصطدمت رؤوسنا بالأرض.. عرفنا قيمة الأرض !

٤ – ٦ – ٧٣

أوتوبوسات الشعر

الكتابة هي فن التورّط. ولا كتابة حقيقية خارج التورّط. الكتابة ليست سجادة فارسية يمشي عليها الكاتب، كما يقول جان كوكتو، ولا مقعداً مغلفاً بـــ "الأوبوسون"، ولا مخدة من ريش العصافير تغوص رؤوسنا فيها، ولا يختاً خاصاً نتشمس على ظهره ... ونشرب البيرة الدانماركية المثلجة.

إن الكاتب يجب أن يظل في أعماقه بدوياً يتعامل مع الشمس، والملح، والعطش.
يجب أن يبقى حافي القدمين حتى يتحسس حرارة الأرض، ونتوءاتها ووجع حجارتها .
يجب أن يبقى عارياً كحصان متوحش، ورافضاً كل السروج التي تحاول الأنظمة وضعها على

ظهره.
ومتى فقد الكاتب بداوته، وتوحشه، وقدرته على الصهيل، ومتى فتح للجام الحديدي ومنح ظهره للراكبين، تحول إلى "أتوبوس حكومي" مضطر إلى الوقوف على جميع المحطات، والخضوع لصفارة قاطع التذاكر.!

إن "أوتوبوسات الشعر" معروفة في تاريخ الشعر العربي القديم، و "كاراجات" الخلفاء تغص بألوف القصائد المنافقة التي تحولت مع مرور الزمن إلى هياكل من التنك، وأكوام من الخردة.

غير أن ما يدهشنا هو أن تستمر هذه الظاهرة في الشعر العربي الحديث، حيث نلاحظ أن بعض شعرائنا قد تحولوا هم أيضاً إلى "أوتوبوسات"، تنحرف يميناً ويساراً على عواصم الوطن العربي، حاملة في صناديقها الخلفية ألبسة التمثيل، وأدوات" الماكياج"، وقصائد تتغير عناوينها حسب "مقتضى الحال!"

لا يمكن للشاعر أن يختار الثلج والنار معاً، ولا يمكنه أن يكون في الغابة والمدينة معاً، ولا يمكنه أن يكون في النجاة وفي الموت في الوقت نفسه!

إن الكتابة هي لعبة يومية مع الموت. هكذا فهم هيمنغواي الأدب. وهكذا فهمه كافكا، ولوركا، وكامو، ومايا كوفسكي، وغيرهم ممن عاشوا حياتهم وأدبهم في البرزخ الفاصل بين الحياة والموت.
أما عندنا، فإن الكتابة "وظيفة أميرية" فيها كل طمأنينة الوظيفة، وطاعتها، وقدريتها، وانضباطها...

وثلاثة أرباع الكتاب العرب "موظفون أميريون" يكتبون وفي جيوبهم" بوليصة" تأمين ضد الفقر، والمرض، والشيخوخة والطرد التعسفي...

لذلك فهم عاجزون عن إعلان أي اضراب، وعن السير في مظاهرة، وعن توزيع أية قصيدة أو منشور سري يوافق عليه رب العمل.!

وهكذا يقف الكاتب العربي ممزقاً بين "وضعه المدني "كرجل متزوج من الحكومة و "وضعه

الفني" كرجل يشتهي خيانة زوجته "الحكومة"، ولكنه لا يستطيع التنفيذ حرصاً على مستقبل الأولاد، وشرف العائلة!

وإلى أن يوجد الكاتب العربي الشجاع الذي يستطيع أن يمزق ورقة زواجه من السلطة، ويمارس الخيانة الزوجية ولو لمرة واحدة، سوف تبقى كتب الأدب لدينا بعيدة عن المنع والمصادرة، تماماً ككتب التدبير المنزلي..!

٧٣ ٧ – ٢

الشاعر وصورته

يشغل بالي كثيراً هذا الإنفصام الحاد الواقع بين بعض شعرائنا وشعرهم، بين سلوكهم على الورق وسلوكهم في الحياة، وبين حقيقتهم الشعرية وحقيقتهم البشرية.
إن التطابق بين الكاتب شيء في منتهى الأهمية. إذ لا يمكن للشاعر أن يكون حمامة في الليل، وذئباً في النهار، ولا يستطيع أن يلعب دور "الدكتور جيكل" على دفاتره ودور "المستر هايد" في علاقاته العامة.

وأنا لا أفهم كيف يمكن لشاعر أن يتحدث عن المثل الأعلى ولا يطبقه، وأن يتغنى بالجمال ونفسه مسكونة بالبشاعة، وأن يكتب عن الطهارة ولسانه غارق في الوحل!

لا يمكن أبداً أن يكون للكلمة وجهان: وجه باطني، ووجه مكشوف. ولا يمكن أن يلبس الشاعر بذلتين: واحدة للشغل، وواحدة للحفلات العامة ...والمناسبات.
وحين يعجز الشاعر عن إقامة التوازن بين فنه وموقفه من العالم، فإن عليه أن ينسحب من الشعر فوراً. وهذا ما فعله الشاعر الفرنسي رامبو حين وجد أن تجارة الرقيق التي امتهنها تتنافى مع خلقيّة الشعر، فتوقف نهائياً عن الكتابة.

إن صورة الشاعر المطبوعة في مخيلة الناس، هي صورة خرافية لإنسان يمتلك طاقة غير محددة على الحب... ويمتلك قلباً يتسع لعشق العالم كله.

وفي الميثولوجيا اليونانية كان الشعراء يتعايشون، ويسكنون معاً في أعالي جبل "الأولمب"، ويتمتعون بكل امتيازات الآلهة.
إن للشعر مناقبيته كما يكون للسفراء مناقبيتهم، ولرجال الدين مناقبيتهم، ولأساتذة الجامعات مناقبيتهم. والشاعر الذي يخرج على العرف الشعري العام، يكون حاله كحال رجل الدين الذي يرتاد إحدى "الكاباريهات" المشبوهة بعد إلقاء موعظته.
إنني أقرأ بحزن عظيم أخبار هذه الوليمة الهمجية التي يسلق فيه الشعراء بعضهم بعضاً في قدور نحاسية كبيرة على طريقة قبائل الماو ماو!

مَن المستفيد من هذه الحرب غير المقدسة التي يسيل فيها دم الشعراء ودم الشعر معاً؟

ولماذا يطبق بعض الشعراء طريقة رجال المخابرات في "تصفية" زملائهم حتى يظلوا محتفظين بالسلطة؟
ولكن سلطة الشعر لا يمكن اغتصابها بانقلاب أصفر يخطط له ثلاثة شعراء جالسين في مقهى؟!
إن سلطة الشعر ليست طارئة أو زمنية تعطى بمرسوم، وتلغى بمرسوم، ولكنها سلطة يقررها استفتاء عام يدلي بها جميع قراء الشعر بأصواتهم وفق الأصول الديمقراطية.

ثم إن سلطة الشعر هي سلطة غير مرئية، بمعنى أنها متغلغلة في وجدان الناس، وذاكرتهم، وعقلهم الباطن، وجذورهم الممتدة في الزمن والتاريخ. ولذلك فإن الانقضاض على سلطة شاعر بواسطة مصفحة، أو كتيبة "كومندوس"، أو طائرة "ميغ" هو عمل إنتحاري ميؤوس منه.

والشاعر الذي يعتقد أنه قادر على الإطاحة برؤوس جميع من يعاصرونه من الشعراء، يقدم الدليل على أن رأسه غير ثابت في مكانه، وأن صراخه العصبي ليس سوى شكل من أشكال الدفاع عن النفس.

وبعد... فإن العمل الشعري هو من أعمال الطهارة. وعلى الذين يكرهون الاستحمام كل يوم،

ويرفضون ارتداء الملابس النظيفة كل يوم، أن يعودوا إلى الغابة.

٧٣ ٨ – ٦

الهيبيون يكتبون شعراً...

انتبهوا!. فالهيبيون وصلوا شواطئ الشعر العربي، وبدأوا يحفرون الأرض، ويدقون ألواح القصدير، ليقيموا عليها مستوطنات الشعر المستقبلي، أي شعر سنة ٢٠٠٠.

ومثلما زحف الهيبيون في الستينات إلى شوارع أوروبا ، وميادينها الجميلة، ملأوها بالنفايات، وحوّلوا ميدان) البيكاديللي سيركس) في لندن، وساحتي (الكونكورد) و (الإيتوال) في باريس، إلى مزبلة.. ونافورة (الفونتانا دي تريفي) في روما إلى حمام عمومي يغتسلون بمياهه ..ويغسلون ثيابهم..

مثلما حدث هناك ، يحدث اليوم هنا.. ويبتلينا الله ويبتلي الأدب العربي بطغمة من الشعراء الهينيين، أطلقوا على أنفسهم اسم (شعراء السبعينات).. يحملون سندويشات شعرهم المقدد.. ويلقون قشور الموز تحت أرجل القراء..

وإنني لأتذكر أن بلدية روما، قد اضطرت دفاعاً عن جمال المدينة، وسمعتها السياحية، وخوفاً على الصحة العامة، أن تطارد الهيبيين بخراطيم المياه، ومسحوق الـــ د . د . ت . حتى أجبرتهم على الجلاء عن العاصمة الإيطالية الجميلة..

إن العلماء اليوم مهتمون بموضوع يهدد مصير الإنسان، وهو (تلوث البيئة) الطبيعية. ولكن أحداً منا لا يفكر بدور هيبيي الشعر الحديث في تلويث البيئة الأدبية.

هؤلاء الهيبيّون مَنْ هُمْ ؟
ومن أين جاؤوا ؟
ما هي أصولهم وخلفياتهم الثقافية ؟
وماذا يريدون بالضبط ؟

الواقع أن هؤلاء جاؤوا من العدم .. العدم الثقافي ، والعدم الجمالي ، والعدم القومي ، والعدم التاريخي..
إن اللغة العربية تضايقهم لأنهم لا يستطيعون قراءتها ... والعبارة العربية تزعجهم لأنهم لا يستطيعون تركيبها .. وهم مقتنعون أن العصور التي سبقتهم هي عصور انحطاط ، وأن كل ما كتبه العرب من شعر منذ الشنفري حتى اليوم .. هو شعر رديء ومنحط ..

تسأل الواحد منهم عن المتنبي ، فينظر إليك باشمئزاز كأنك تحدثه عن الزائدة الدودية ، وحين تسأله عن (الأغاني) و (العقد الفريد) و (البيان والتبيين) و) نهج البلاغة) و (طوق الحمامة) يرد عليك بأنه لا يشتري أسطوانات عربية.. ولا يحضر أفلاماً عربية..

إنهم يريدون أن يفتحوا العالم وهم عاجزون عن فتح كتاب .. ويريدون أن يخوضوا البحر وهم يتزحلقون بقطرة ماء .. ويبشرون بثورة ثقافية تحرق الأخضر واليابس .. وثقافتهم لا تتجاوز باب المقهى الذي يجلسون فيه .. وعناوين الكتب المترجمة التي سمعوا عنها..

إن الحديث عن ثورة ثقافية عربية انتقل إلينا بالعدوى ، كجرثومة الزكام .. فإذا (تزكمت) فرنسا أو الصين الشعبية .. فإن المفروض أن (نتزكم) نحن أيضاً بالتبعية .. مع حفظ الفارق بين منظور الثورتين الثقافيتين الفرنسية والصينية .. ومنظورنا...

فإذا سارت مظاهرة في بكين ضد كونفوشيوس .. فلا بد من تنظيم مظاهرة عربية ضد النابغة الذبياني أو الشريف الرضي .. ولا بد من إعادة محاكمتهما باسم الحداثة .. وباسم الحرية..

والحرية الشعرية هي أخطر أنواع الحريات .. ولا سيما عندما تعطى إلى مجموعة من المجانين لم تكتمل أضراس العقل لديهم بعد .. ولا يفرقون بين الألف وعمود التلفون .. وبين أبي العلاء

المعري والمقرئ الشيخ محمد رفعت، وبين الشاعر عمر بن أبي ربيعة.. والممثل عمر الشريف .. وبين شعر ابن الرومي و (الجبنة الرومي...(

وإنه لمن المفارقات العجيبة، أن تكون كل الثورات الثقافية في العالم، قد قامت على أكتاف المثقفين والجامعيين، باستثناء الثورة العربية التي يراد لها أن تقوم على أكتاف الفوضويين والمشاغبين وأنصاف الأميين...

إن ولاءنا للشعر العربي القديم ليس ولاءً مطلقاً، فنحن نعرف مواطن جماله ، ومواطن قبحه، ونعرف مواضع ضعفه، ومواضع قوته. ولكننا لا نسمح لأنفسنا ولا للآخرين بإعدام ديوان الشعر العربي كله بحجة التقدمية والثورية. كما لا نسمح بإلغاء الكلام العربي بحجة أنه صار كلاماً قديماً.. أو ساقطاً..

إن أول شرط من شروط الثورة هو أن يكون وراءها قضية. وأهم ما يميز الثائر هو أن يحمل تصوراً واضحاً للمستقبل. وفي غياب مثل هذا التصور يصبح الانقضاض على التراث بصورة مجانبة وغوغائية عملاً من أعمال التخريب..

إن كل عملية تكسير، يجب أن تقدم لنا فوراً بديلاً عن الشيء المكسور. أما تحطيم الأشياء بدافع التشفي والسادية، والعدوان على التاريخ لمجرد أنه تاريخ.. فجريمة تنطبق عليها كل أوصاف الجريمة العلنية..

ونحن نتساءل بكل براءة:
ما هو البديل الذي قدمه لنا شعراء السبعينات.. لقاء سكوتنا عن قطع رأس المتنبي؟
إن هيبيّي الشعر العربي الحديث لا يملكون، عندما تحشرهم في زاوية ضيقة، وتطالبهم بفدية عادلة تعوضنا عن موت الطيب الذكر أبي الطيب المتنبي.. سوى أن يقرأوا عليك نماذج من الهذيان ليس لها رأس .. ولا ذنب...

وعندما تصرخ من الوجع والضجر، وتختنق في عتمة الدهاليز والسراديب .. وتدوخ أمام لعبة الكلمات المقاطعة، والخرائط الملحقة بالقصيدة وتسألهم: ولكن متى تبدأ القصيدة؟ يجيبونك باحتقار : (إن القصيدة بدأت .. وانتهت.. وإذا كنت لم تفهمها فلأنك متخلف عقلياً .. ولأن

مستواك الثقافي لا يسمح لك بدخول عالم القصيدة الجواني(...

...وبعد .. فهذه هي قصة هيبيي الشعر العربي الحديث الذين يحملون ساندويشات الشعر المقدد.. ويرمون قشور الموز تحت أرجل القراء.. طبعاً أنا غير خائف على الكلام العربي من هجمتهم، فللشعر العربي عمق حضاري يمتد على مدى ألفي سنة..

ولكنني خائف على نظافة شوارع بغداد، ودمشق، والقاهرة، وبيروت، ومطلوب من بلديات هذه العواصم الجميلة.. أن تكافحهم بخراطيم المياه كما فعلت بلدية روما...

١ – ٧ - ١٩٧٤

استقالة الشيطان

تعبت الطائرات النفاثة وهي تنقل إلى بيروت وفود القبائل العربية التي جاءت من حواضرها وبواديها لمصالحة عشيرتي الأوس والخزرج..
وكما يجري عادة في كل صلح عشاري .. دقت الطبول ، ووزعت القهوة المرة .. وزغردت النساء في الخيام.. وذبح أكثر من ألف رأس غنم .. تحت أقدام المتخاصمين..

ولقد نقل التلفزيون – على جميع أقنيته – صور وسطاء الخير، وهم خارجون من حفلة (تبويس الشوارب) .. يتنهّدون أمام كاميرات المصورين بأسى، ويجففون دموعهم بأوراق (الكلينكس).. ويلعنون الشيطان لأنه أساس البلاء، ومصدر الفتنة.

هذا الشيطان الذي نرمي على رأسه كل أخطائنا ، وجرائمنا، وعاهاتنا منذ ألف سنة حتى اليوم .. ألا يستحق أن نوكل له محامياً يرد عنه كل التهم الباطلة التي مسحناها بذقنه واسترحنا ؟..

أليس من حق الشيطان أن يطالب بوثيقة إعادة اعتبار .. بعد أن شوّهنا سمعته، وحمّلناه نتائج كل هزائمنا العسكرية والخلقية والحضارية؟

لماذا يبحث العالم العربي دائماً عن ضحية يفرغ فيها كل اسقاطاته وعقده وانحرافاته النفسية؟

إن صورة الشيطان في (الانسكلوبيديا بريتانيكا) هي صورة مخلوق له قرنان طويلان، وعينان ماكرتان، وسكسوكة صغيرة في الذقن .. ولكن سجله العدلي لا يشير إلى أنه اشترك – بصفة مستشار سياسي – في أي مؤتمر عربي عقد في الخمسين سنة الأخيرة.

كما أنه لم يكن مستشارنا العسكري لا في حرب ١٩٤٨ ولا في حرب ١٩٦٧ ، ولا في كل الحروب الأهلية التي خضناها ببسالة منقطعة النظير .. معتمدين فيها على مواهبنا الطبيعية..(

لقد كان الشيطان صغيراً .. وبريئاً .. ويشرب الحليب من (البيبرونة) .. حين كنا (أساتذة) ندرّس مادة (الاغتيال السياسي (لطلبة السنة الأخيرة في جامعاتنا.. ونعلمهم كيف يكون الحوار بالهراوات .. والتوميغانات..

مسكين الشيطان .. فتفاحته طردت شخصين فقط من الفردوس السماوي. في حين أن تفاحة العرب طردت مليوني فلسطيني من أرضهم.. وقدمت لهم كتعويض راديو (F . M) ومجموعة اسطوانات..

أيها السادة:

لم يكن للشيطان يد في سقوط الأندلس، ولا في سقوط فلسطين ، ولا في سقوط الجبهة الشرقية ، ولا في سقوط الوحدة المصرية السورية ، ولا في رسم العالم العربي على هذه الصورة (الوالت –ديزنيه(..

إن شيطاننا عربي مئة في المئة .. فهو مستوطن فينا ، كما تكون دودة الخلّ منه وفيه ... وكما يرث الثور الإسباني غريزة النطح مع حليب أمه...

أيها السادة:

لقد قدم الشيطان استقالته .. وركب الطائرة وسافر..
فابحثوا عن بديل له تحملونه – كالعادة – نتائج عصبياتكم ، وأنانياتكم .. ومذابحكم من أيام داحس والغبراء .. حتى اليوم...

٢١ – ٥ – ٧٣

كيسنجر ... قيصراً

تحاول الصحافة العالمية أن تقنعنا أن الدكتور الهارفاردي الثقافة هنري كيسنجر أصبح قيصر هذا العصر، وأنه ورث كل تيجان قياصرة روما ... وكل عرباتهم المرصعة بماء الذهب .. ودموع العبيد..

ومن المؤسف، أن تنساق صحافتنا العربية، مع الصحف الأميريكية في تتويج القيصر الجديد، فتنشر صوره في ثيابه وفي عريه.. وبلباس السموكن أو بلباس البحر... وفي مكتبه في البيت الأبيض ، أو في بانيو الحمام...

إنني لا أفهم أبداً لماذا تشترك الصحف العربية في هذه (الزفة) الأميركية، وتتابع مسيرة العريس من بوابة البيت الأبيض، إلى بوابة وزارة الخارجية الأميركية...

صدقوني.. إذا قلت لكم أن شعرة واحدة من جسدي لم ترتعش لمشهد العرس .. أو لمشهد العريس .. فكل العرسان الأمريكيين يتشابهون كحبات رز الأنكل بن .. وكلهم يقرأون في رحلة شهر العسل كتاب (لعبة الأمم) باعتبار أن مايلز كوبلند هو أحسن خبير عندهم في (الزواج المثالي...(

ربما كان وجه الاثارة في الموضوع أن البروفسور يهودي ألماني، استطاع بذكائه ، وثقافته، وخبرته الواسعة في الشؤون الدولية، أن يكون الرأس المخطط لسياسة الولايات المتحدة الخارجية...

ولكن هل المستشار كيسنجر هو أول يهودي يأتي إلى الإدارة الأميركية، ويحرك خيطانها، ويرسم علاقات أميركا بالعالم؟
وهل كانت الولايات المتحدة، قبل كيسنجر، مستقلة في تفكيرها، وشخصيتها، ومواقفها، عن نفوذ أورشليم وتعاليم النبي موسى؟

لذلك، فلا داعي لانبهارنا، إذا رأينا صورة القيصر الجديد على غلاف التايم والنيوزويك، ولا مبرر للاعتقاد أن الرجل سيغير التقاليد الأميركية في إذلال العرب، وإرجاعهم إلى بطاح مكة....

ومثلما كان حلم مترنيخ إيقاف المد النابوليوني في أوروبا، وعزل الأفكار الثورية التي فجرتها الثورة الفرنسية، فإن سياسة مترنيخ الجديد تقوم على أساس محاصرة المدّ الثوري في منطقة الشرق الأوسط ، ومنع ولادة (نابوليون عربي) بأي ثمن...

من أجل هذا الحلم المترنيخي – الكيسنجري – النيكسوني وضعوا لنا مخفري بوليس رئيسيين : واحد في اسرائيل، وواحد في إيران.. وكلّفوهما بتأديبنا كلما حملت امرأة فلسطينية بغلام ذكر..

ولكن (نابليون العربي) كالسيد الخصر، يمكن أن يأتي في أية لحظة ... ويمكن أن تحبل به أية امرأة فلسطينية، أو سورية، أو عراقية، أو مصرية، أو جزائرية...

والدليل على ذلك أن (نابليون الفيتنامي) قد ولد.. رغم إدارات الأسطول السابع، وأقمار التجسس، وملايين الألغام التي زرعت في بحار فيتنام وأنهارها..
خرج فجأة من مياه المستنقعات، وحقول القصب، وظلّ يعضّ أصابع الولايات المتحدة .. حتى قطعها...

ولم يكن دور كيسنجر في مفاوضات باريس سوى استعادة أصابع الولايات المقطوعة... ولفها بالقطن والشاش المعقم.

إن القول أن كيسنجر هو العبقري الذي أوقف حرب فيتنام، وجعل التقارب بين الولايات المتحدة والصين الشعبية ممكناً، وكسر جدار الجليد بين أميركا والإتحاد السوفياتي هو قول مغلوط وسطحي.
فالولايات المتحدة لم تنسحب من فيتنام برضاها، ولم تتعايش مع ثمانمئة مليون تنين صيني برضاها. وإنما أرغمت على الإنسحاب من جنوب شرقي آسيا لأنها نزفت وتعبت.. وصار وجودها العسكري مستحيلاً..

كما أن القول أن هنري كيسنجر يحمل في يده مفاتيح هذا العالم ومقادير البشرية، هو قول خطير. لأنه يلغي إرادة الشعوب، ويسلبها حرية الرفض وحرية الاختيار.. ويجعل الكرة الأرضية تفاحة على مائدة القيصر كيسنجر..

مرة أخرى أقول للعرب أن الأمر بيدهم وحدهم، وأن تغيير الحقائب في وزارة الخارجية الأميركية يشبه تغيير ملابس الممثلين بين فصول المسرحية، بينما يبقى نص المسرحية واحداً..

فيا أيها السادة، لا تنفعلوا كثيراً بما تقوله النيوزويك والتايم، من أن البروفسور سيتفرغ الآن لحل قضية الشرق الأوسط، ولا تصدقوا أنه يحمل تعويذة يخرج بها (الزير من البير...(
فمفاتيح فلسطين موجودة في جيوب الفلسطينيين ومعلقة برؤوس بنادقهم..

١ – ١٠ – ١٩٧٣

كان ولدي .. فصار ولدكم

في العاشر من شهر آب ، مات ابني توفيق في لندن.
توقف قلبه عن العمل ، كما يتوقف قلب طار النورس عن الضرب ، وهو على بعد خطوتين من الشمس..

كان توفيقاً أميراً دمشقياً جميلاً..
كان طويلاً كالزرافة ، وشفافاً كالدمعة ، وعالي الرأس كصواري المراكب. وكانت تتبعه إذا مشى ، أزهار اللوتس ، وشقائق النعمان ، وغزالات الصحراء.

هل الموت رجل أم هو امرأة؟
لم أناقش جنس الموت من قبل.
ولكن بعد أن هب توفيق، وبكل وسامته، وملاحته، وصورته اليوسفيّة، تأكدت أن الموت امرأة .. ربطت خصلات شعره الأشقر بمنديلها الحريري.. وخطفته إلى بيتها قبل أن تخطفه واحدة من بنات الأرض.

فيا سيدتي التي تخبئين ولدي في غرفة نومك التي ستائرها غمام، وشراشفها غمام، ومخداتها غمام.
لا اعتراض لي على زواج توفيق منك..
فأنا أب عصري أحترم العشق، وأقف مع العشاق في جميع معاركهم، ولكن من حقي – كأب – أن أعقد ربطة عنق توفيق في ليلة عرسه...

إنني أنحني أمام رهافة ذوقك، وروعة اختيارك، يا من تستحمّين الآن مع ولدي في مياه السحب البنفسجية.. وتقطفين له الفاكهة من بساتين الله..
ليس في نيّتي أن أذهب إلى المحاكم، وأقيم عليك الدعوى بتهمة اختطاف طالب في السنة الثالثة من كلية الطب.
إنني أعرف سلفاً أن دعواي مردودة ، وأن جميع القضاة في العالم – إذا رأوا صورة توفيق معك – حكموا لك بالبراءة.. وحكموا علي بالصبر..
إنني أعرف سلفاً أنك لن تعيديه إليّ..
من ذا الذي يختطف ملكاً خرافي الملامح مثل توفيق، ويرضى أن يعيده إلى العرش؟

كنت أتصور أن موت ابني هو قضية خصوصية بيني وبينه.. لكن الذي حدث كذب جميع تصوراتي.
فما أن خرج توفيق من بيتي حتى انفتحت أمامه أبواب جميع البيوت في العالم العربي.
وما أن ترك توفيق منزل الأبوة، حتى صار له آلاف الآباء والأمهات في كل مكان من هذا الوطن

العظيم.
في دمشق أعطوه سريراً، وفي لبنان كتبوه على أكواز الصنوبر ودفاتر الثلج، وفي مصر أهدوه أغلى ما في خان الخليلي من مصاحف، وفي بغداد أطعموه المن والسلوى، وفي السعودية لفّوه بعباءة فيها شيء من أنفاس الرسول، وفي السوادن قدموا له عروساً بلون النحاس وخشب الأبنوس، وفي الأردن وضعوا حول عنقه طوقاً من ياسمين أريحا، وفي الكويت والبحرين أهداه صيادو اللؤلؤ أكبر لؤلؤة وجدوها في أعماق البحر.

آه ..ما أروع الموت بين العرب... ومع العرب ... آه ما أروع الانتماء إلى القبيلة!
إن موت توفيق أعادني بدوياً مغرقاً في بداوته، وردني مرة أخرى إلى بني هاشم، وبني تغلب، وبني مخزوم، وبني تميم، وبني شيبان، وإلى كل أبناء العمومة والخؤولة الذين يقتسمون معك حياتك، ويقتسمون موتك..
أما هناك.. أما في لندن .. فإن الموت إعلان مدفوع الأجرة في جريدة "التايمز"، والميت زجاجة حليب فارغة مرمية في الشوارع الخلفية.
ممرضتك الإسبانية في السان جورج هوسبيتال في لندن تبكي بطريقتها الأندلسية...
ونحن نبكي عليك بطريقتنا العربية..
والانكليز يتفرجون على دموعنا كما يتفرجون على نوافير الماء في البيكاديللي سيركس...
أكان لا بد لهذه الإسبانية أن تجيء إلى لندن لتزرع أول زهرة حزن في أواني السان جورج هوسبيتال؟
أكان لا بد لها أن تُقنع الانكليز .. أن الإنسان هو حيوان يبكي؟

يا ليتكم حضرتم عرس توفيق في دمشق.
كل المآذن الدمشقية رفعت أعناقها لترى توفيق.. كل حمائم الجامع الأموي فرشت تحت رأسه أجنحتها البيضاء..
كل أشجار الورد البلدي في غوطة الشام، تركت بساتينها وركضت حافية لتعانقه...
كل العصافير التي من عمر توفيق. والتي ولدت معه، وكبرت معه، وذهبت إلى المدرسة معه... رافقت طائرته وهي تنزل.. تنزل... تنزل كالدمعة على خدّ دمشق...

كنت كلما سألته عن قلبه، أخرج قلماً أحمر .. وورقة.. ورسم لي قلبه بشكل وردة جورية.

كان يشرح لي علته بعقلية الطبيب..
وكنت أعرف – كشاعر – أن عمر الورد الجوري قصير...

المكاتيب التي أرسلها توفيق من هناك .. وألصق عليها طوابع تمثل مشاهد من الجنة.. تؤكد لي أنه بخير..
كل ما حدث ، أنه غيّر محل إقامته...
كان في ضيافتي، فصار في ضيافتكم..
كان ولدي، فصار ولدكم.
كان قصيدة حياتي، فصار قصيدة حياتكم.
كان له سرير بين أجفاني، فصار له سرير بين أجفانكم.
كان جواز سفره سورياً، فصار جواز سفره عربياً...

فيا من جعلتم موت ولدي موتاً عربياً..
يا من صرختم معي، وبكيتم معي، وأبحرتم معي إلى مرافئ الحزن..
يا من زرعتم سعف النخل، وأغصان الآس على قبر ولدي..
أرجو أن تعتنوا بهذا الأمير الدمشقي الجميل الذي كان طويلاً كالزرافة، وعالي الرأس كصواري المراكب..
وأن تشتروا له أقلاماً ملونة.. فقد كان يحب الرسم...

٣ – ٩ – ٧٣

عن الحرية

أتصور، أنه لا بد من أن نتفق على تعريف مبدئي لمعنى الحرية، حتى لا تتداخل حدود الأشياء ، وتضطرب الرؤية، ويختلط اللون الأبيض باللون الأسود.
وأول ما أتصوره، هو أن الحرية هي حركة فردية داخل دائرة الجماعة. وهذه الجماعة يمكن أن

تكون أسرة، أو قبيلة، أو جمعية، أو مدرسة، أو وطناً. ومعنى هذا أن الحرية هي خط هندسي ضمن دائرة ، وليست أبداً حركة في الفراغ أو في المطلق.

وكما أن البحر محدود بالشواطئ، والريح محدود بالجبال، والأنهار محدودة بضفافها، والطائرات محدودة بمدارج الصعود والهبوط ..والعصافير محدودة بمساحة أجنحتها، فإن الإنسان هو الآخر محدود بمسؤوليته.

واستعمال الحرية، كاستعمال المستحضرات والعقاقير الطبية، لا يمكن أن يكون بغير مقاييس ومعايير وضوابط. وإلا كانت الحرية قاتلة.

وللحرية دائماً جانبان متعادلان. جانب يختص بنا، وجانب يختص بالآخرين. وكل محاولة منا لنسيان الجانب الآخر، يفقد الحرية معناها الأساسي، ويجعلها طغياناً.

لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً بغير شك.. ولكنهن لم يلدننا في الغابة، وإنما ولدننا في إطار بيت، وأسرة، ونظام اجتماعي نشترك في تأسيسه مع الآخرين.

إن بريطانيا مثلاً، بلد حر، ولكن الفرد البريطاني، أثناء مزاولته لحريته، يبقى ملتزماً باحترام حرية الآخرين، ولا يقفز فوقها. وبمعنى آخر أن المواطن البريطاني ليس سوى نغمة في السمفونية الانكليزية.

وقد عرفت الأنظمة الاستراكية، كيف تصقل حرية الفرد، وكيف تمنع تجاوزاته، وكيف تسيطر على غريزة الطمع المركبة فيه.. بحيث تأتي حرية المجموع أولاً، وحرية الفرد ثانياً.

أما في الأنظمة الليبرالية، فإن الفرد يتصرف كوحش لا يتورع عن أكل كل ما يصادفه من أرض ومصانع وبر.. وهو يعتقد أن الحرية التي يتيحها له النظام الليبرالي، تمنحه الحق في أن يمد ساقيه على رقبة البشرية، ويسحق برأسماله الخرافي واحتكاراته عظام المعذبين في الأرض...

إن الحرية بحر لا ساحل له ..يركبه الرواد والمكتشفون، ويركبه القراصنة وسمك القرش..

ونحن بالطبع نرفض الحرية التي ينادي بها سمك القرش.. لأنها تقوم أساساً على الجريمة، والنشل ، والمتاجرة بلحوم الآخرين ..

إن التاجر الذي خبأ في حرب تشرين أكياس السكر والرز والطحين، وباعها بضعف أسعارها هو سمكة قرش..

وصاحب مستودع الأدوية الذي ضاعف أسعار القطن، والشاش، والمصل التي احتاج إليها الجرحى خلال حرب تشرين، هو سمكة قرش..

وأصحاب مستودعات الخشب، والحديد، والورق، الذين جمعوا خلال الشهور الأخيرة ثروات

خرافية لم يجمعها روكفلر، ولا أوناسيس، ولا آغاخان، ولا أي مهراجا هندي.. هم أسماك قرش لا زالت تتنزه على شواطئ البحر الأبيض المتوسط..
هذه أتفه أنواع الحريات وأحقرها.

إن الحرية عندنا، تفترض أنه لا يوجد على ظهر الأرض سوانا...
فنحن نقود سياراتنا على أساس أن البشر لم يُخلقوا بعد .. وأن مصانع السيارات لم تُنتج سوى سيارة واحدة هي التي نركبها نحن..
والحرية عندنا، معناها أن نجعل العالم كله أملاكاً خصوصية لنا، وأن نشتري جميع تذاكر السينما ونمدد أرجلنا على جميع المقاعد.. ونشتري كل الأدوية الموجودة في الصيدليات.. وكل الخبز الموجود في الأفران.. وكل السمك الموجود في البحر.. وكل النساء الجميلات في العالم، ونعلقهن كالفراشات المحنطة، على جدران أنانيتنا...
إن الحرية هي محصول حضاري لا يعرفه إلا المتحضرون.
فالثعبان لا يعطى الحرية لأنه لا يحسن التصرف بها..
والذئب لا يمكن أن يدعي الحرية لأن تكوينه الأساسي تكوين عدواني.
والقرصان لا يمكن أن يتكلم عن الحرية، لأن غايته الأساسية هي أن يغتال البحر والمسافرين...
والرجل الذي يذبح شقيقته، أو زوجته ، أو ابنته، بتفويض من مجتمع الثأر والعقد الجنسية لا يمكنه أن يصرخ أمام المحكمة: "أنا حر". لأن الحرية لا تعطينا تفويضاً بالقتل.
وكذلك الكاتب، والشاعر، والروائي، والصحافي، لا يمكنهم أن يقامروا بالكلمة، ويبيعوها جارية في سوق النخاسة، بدعوى أنهم أحرار. لأن الكتابة ميثاق شرف ثلاثي بين الكاتب، وبين ضميره، وبين من يقرأونه. وكل خيانة لهذا الميثاق تسقط شرف الكاتب والكتابة معاً..

إننا مع الحرية بدون تردد.. ومع الأحرار إلى آخر الشوط.. شريطة أن يكون لهذه الحرية ضابط أخلاقي، وعقلاني، وثقافي، وقومي، يجعلها في خدمة الإنسان، وفي خدمة المُثل العليا..
إنه لا يكفي أبداً أن نكون أحراراً ..وإنما لا بد لنا من أن نستحق حريتنا..

١٧ – ١٢ – ١٩٧٣

خاتم مصر

(١)

تجمعُ مصر حروف اسمها الجميل..

وتعيد تطريزه على حواشي منديلها المبلل بالدموعْ

تكتبه، بالخط الكوفيّ العريض، على جدار النهارْ..

تستردّه من قاع البحر..

وأسنان سمك القرش..

وحطام المراكب الغارقة..

تُلصق الميم إلى جانب الصادْ..

وتُلصق الصاد إلى جانب الراءْ..

وفجأةً..

تتدلى من سقف العالم نجفةٌ من الزمرّد الأخضرْ..

إسمها : مصر

(٢)

تستعيد مصر خاتمها من تحت الماء..

وتعيد تركيب الفيروزات الثلاث..

التي سقطت من خاتمها، وهي تغسل يديها بماء قناة السويس في صيف عام ١٩٦٧.

تمسح ما تراكم عليه من صدأ وحشائش بَحْرية..

وتعيده إلى مكانه في المتحف المصري

فيطمئن التاريخ على نفسه..

وتطفو على مياه القمر..

زهرة لوتس إسمها مصر...

(٣)

ست سنوات .. ومصر تبحث عن خاتمها المسروق
لجأت إلى الكهنة ، والعرافين ، وقارئي الغيب..
فأخبرها ريس الكهنة أن خاتمها موجود في بطن حوت كبير .. كبير .. رأسه عند شواطئ فلوريدا ..وذيله في مياه إسرائيل..
ذهبتْ إلى الوسطاء، وأصحاب الكرامات، وصانعي الحجابات، فأخبروها أن خاتمها موجود في صندوق ملك الجان.. وأنه لن يعيده إليها إلا إذا رهنت لديه أساورها ، ورهنت أطفالها ، وصامت سبعة أيام من كل أسبوع..
وصامت مصر ٢١٩٠ يوماً
وانتظرت ٢١٩٠ يوماً
وسحب وجهها ، ونقص وزنها، وسكنت عصافير الحزن عينيها الجميلتين..
واشتكت مصر إلى الانتربول، وإلى محكمة العدل، وإلى القضاة ذوي البروكات البيضاء والمطارق الخشبية، فاكتشفت أن القضاة واللصوص يؤلفون شركة واحدة لسرقة المجوهرات...

(٤)
تتعرف مصر على وجهها في مرايا سيناء..
تقرأ اسمها في كتاب الشهادة.. ومزامير العبور..
تقرؤه في فرح المغامرة، وأبجدية الإقتحام..
تقرؤه على معاطف الجنود المسافرين إلى الضفة الثانية للكبرياء..
تقرؤه في جراحهم المتلألئة تحت الشمس كأحجار الياقوت .. وحقول شقائق النعمان..
وتكتشف مصر صوتها في رصاص مقاتليها...
لا في حناجر مغنّيها..

(٥)
تضع مصر خاتمها الفاطمي في إصبع يدها اليسرى..
وتصبح عروساً..
يقطع القمر إجازته .. ويرقص كزوربا اليوناني في ساحة التحرير ..
تتبرع أشجار القطن في الدلتا بكل أزهارها البيضاء لغزل طرحة العروس . تركب مآذن الأزهر القطار السريع المتجه إلى الإسماعيلية لتبرم عقد الزواج.

يخرج الفراعنة نساءً ورجالاً وأطفالاً من غرف نومهم في الأقصر وأسوان والكرنك ووادي الملوك ويرشّون مصر بماء الورد..
يبيع التلاميذ كتبهم الجامعية.. ويدفعون مهر العروس.
ينزل عمرو بن العاص عن حصانه، ويقدم للعروس عباءته وسيفه.. ويقرأ لها سورة الفتح..

(٦)
يا مصر..
بطاقة عرسك بيدي.
فهل تسمحين لي أن أمشط شعرك القادم من غابات الحزن..
وألثم يديك المحترقتين بالنار...
وأشيل ثوبك المثقوب برصاص البطولة؟.
هل تسمحين لي أن أكون شاهد الزفاف ؟

تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣

شوربة الوزير

في المأدبة التي أقامها الدكتور هنري كيسنجر، وزير خارجية الولايات المتحدة الجديد، على شرف وزراء الخارجية العرب، ورؤساء وفودهم إلى الأمم المتحدة، لم يقدم سوى صنف واحد من الطعام هو الشوربة..
طبعاً .. كان العشاء خيبة أمل كبيرة .. ومقلباً لجميع الذين قبلوا الدعوة .. لأن معدة العربي متعودة تاريخياً ، ووراثياً، على الأطعمة الثقيلة Solid Food من رز، وفول، وعدس، ودقيق، وغيرها من فصائل النشويات..
وهكذا خرج الوزراء العرب ، ورؤساء الوفود جائعين من المأدبة الأميركية الشحيحة .. وعادوا

لفنادقهم منكسري الأحلام ..
ولو أن المضيف قال على المائدة كلاماً جميلاً .. ولو أن حواره السياسي معهم كان حواراً دسماً .. لنسي المدعوون (عقوبة) الشوربة ذات الملح القليل، والدسم القليل .. ولكن كلام الوزير – المستشار كان هو الآخر (شوربة) بكل ما فيها من ارتخاء، ولزوجة، وهشاشة...

"لا تنتظروا من الولايات المتحدة معجزة" قال الوزير.. ومن قال أننا ننتظر من الولايات المتحدة معجزة.. يا حضرة الوزير؟
نحن نعرف أن جميع معجزات الولايات المتحدة هي معجزات توراتية وموسوية.
فهي التي أخذت من النبي موسى عصاه الخشبية، وأعطته بدلاً عنها خمسمئة طائرة فانتوم وسكاي هوك، تتلوى كل يوم كالثعابين في سماواتنا...
وهي التي أعطته أجهزة الرادار المتقدمة، ليكتشف طريقه لقنال السويس..
وهي التي أعطته آلة تسجيل الكترونية، وشريطاً ليتجسس على السماء...
مسكينة هي الولايات المتحدة..
إن تاريخها معنا، يفوح مسكاً وعنبراً..
فهي لم تشحن لإسرائيل سوى قوارير العطر... ومستحضرات التجميل... ولم ترسل لموشي دايان سوى علبة شوكولاته، وكرافات بيار كاردان...
إن كل هدايا أميركا لإسرائيل كانت هدايا رمزية ... ابتداءً من سلال الورود .. إلى علب المارون جلاسيه...
وفي المناسبات السعيدة، كان الرئيس ترومان، أو الرئيس نيكسون، يرسل إليها خرزة زرقاء .. كتب عليها بخط يده: (ما شاء الله .. عين الحسود لا تسود.(..
مظلومة هي الولايات المتحدة..
إنها تدّعي (العذرية) في كل الأندية والأماكن العامة.. وتحاول في كل أحاديثها أن تقنعنا أن بكارتها السياسية لم يمسها بشر.. مع أن شهور العيان رأوها كيف تنزف على ضفاف نهر الميكونغ، وتلال دانانغ.. كما رأوها كيف تخلع ثيابها وترمي نفسها في أحضان جوزف تاكوا ريس الوفد الإسرائيلي في المنظمة الدولية..

بريئة هي الولايات المتحدة...
فهي لم تكن مع القاتل ضد القتيل.. ولا مع السارق ضد المسروق ولا مع الضارب ضد

المضروب...

إنها ملتزمة بكل مبادئ العادلة والشرف التي نادى بها الرئيس ابراهام لنكولن من الألف إلى الياء..

فلا هي أسقطت قرار مجلس الأمن لعام ١٩٦٧ ، ولا هي جعلت مهمة الدكتور يارينغ مهمة مستحيلة... ولا هي استعملت حق الفيتو لتفشيل كل القرارات التي تدين العدوان الاسرائيلي على دمشق، وبيروت، والقاهرة... ولا هي التي شجعت اسرائيل على الاحتفاظ بما استولت عليه من أراض عربية.. وأعطتها (ورقة طابو) رسمية بذلك... ولا هي التي تحاول تمييع القضية الفلسطينية، وتأجيل البت بها، و(فركشة) كل الوسطاء.. حتى يتولى الزمان وحده إلغاء ذاكرة الفلسطيني..

إذن .. لماذا نذهب إلى عشاء الوزير – المستشار؟ ما دامت قائمة الطعام الأميركية لم تتغير منذ حزيران ١٩٦٧ حتى اليوم.. وما دام كل الطباخين متخرجين من المدرسة الفندقية في تل أبيب...

لماذا نتعشى خارج البيت؟

لقد أثبت التاريخ أن الذي لا يطبخ في بيته، يبقى طول عمره جائعاً... والبيت العربي لحسن الحظ فيه كل المواد الأولية الرئيسية من حنطة، وسمن، ودقيق، ولحوم بيضاء وحمراء.. وحطب.. وفحم ..وبترول...

ولكن طباخينا ليست لديهم الهمّة ولا الطموح لقلي بيضة .. فهم ينامون حتى الظهيرة.. وينتظرون شوربة البحص الأميركية التي ما زالت تغلي على النار منذ ست سنوات .. ولا زالت بحصاً .. بحصاً .. بحصاً...

٨ – ١٠ – ١٩٧٣

حبيبتي ... تتعطر بالنفط

للمرة الأولى .. أشتري زجاجة بترول .. وأهديها لحبيبتي..
وللمرة الأولى .. تأخذ حبيبتي الهدية باعتزاز.
وتضع قطرة نفط تحت الأذن اليمنى..
وقطرة نفط تحت الأذن اليسرى..
وتشكرني لأنني أعدت إليها الثقة بأنوثتها .. أهديتها عطرها المفضل : النفط.
الأنوثة العربية، بعد حرب تشرين، تخلت عن أدوات التواليت القديمة..
نسيت عطر لانفان، وديور، وشاليمار، وروشا، وأصبحت تتعطر بعطر كركوك، والظهران، والأحمدي، وليبيا، والجزار، وأبو ظبي، والبحرين، وقطر..
حبيبتي ، بعد حرب ٦ تشرين ، تفضل أن تسعمل عطراً قومياً.. وأنا أحبها بشكل أعنف ، لأن رائحتها صارت مختلطة برائحة وطني المقاتل..
هل حدث لكم أن أحببتم امرأة في زمن الحرب؟
هل حدث لكم أن واعدتم امرأة تحت جناح طائرة فانتوم محترقة في أحد شوارع دمشق؟
هل حدث لكم أن تغزّلتم بامرأة تغطّ مشطها بماء قناة السويس، وتمشط شعرها وهي تسند ظهرها إلى دبابة اسرائيلية معطوبة على خط بارليف ؟
هل حدث لكم أن رأيتم عينيْ حبيبتكم على ضوء الشظايا، وسمعتم صوتها يخرج كالوردة، من تحت اكياس الرمل، وإيقاع صفارات الإنذار..
هل عرفتم كيف يصير وجه الحبيبة.. وخريطة الوطن شيئاً واحداً.

لقد عرفت كل أنواع الحب..
ولكن الحب في زمن الحروب، شيء آخر .. شيء آخر..
ولقد سافرت إلى كل عواصم العشق..
وتجولت في كل شوارع العشاق..
ولكن شارع (أبو رمّانة) في مدينة دمشق، بأبنيته المهدمة، وشرفاته المتساقطة، وأصص أزهاره المحترقة، واشجاره التي حصدتها الصواريخ، أصبح أهم شارع في العالم. لأن الكبرياء والبطولة أصبحتا من بين سكانه...

الجنود العراقيون والمغاربة الذين قاتلوا دفاعاً عن عذرية الشام، أصبحوا قصيدة على فم الشام..
كل أم دمشقية تروي لأطفالها في هذه الأيام، قصصاً خرافية عن هؤلاء الفرسان الذين توّهجوا

كالبروق على ذرى الجولان ...
العراقيون على الجبهة، رفضوا استعمال إجازاتهم، ولو لبضع ساعات، لأن السيف في نظرهم لا يأخذ إجازة.. كبقية الموظفين.. والمغاربة الجرحى في المستشفيات السورية رفضوا أن يبعثوا لأهلهم رسائل اطمئنان، لأنهم جاؤوا إلى سورية ليموتوا موتاً حقيقياً.. لا نصف موت..
أساطير.. أساطير.. أساطير تملأ دمشق ..لملمتها من شفاه الناس، وأنا أصرخ من شدة التيه والعنفوان:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم *** إذا جمعتنا ، يا جرير، المجامعُ

أوروبا ترتعش من البرد..
وهولاندا تلطم خديها كامرأة مات زوجها في عز الشتاء..
وحبيبتي تلعب بقارورة النفط التي أهديتها إليها.. وتغني .. بالنيابة عنها رسائل شكر إلى الملك فيصل، والشيخ صباح السالم الصباح، والرئيس هواري بومدين، والرئيس أحمد حسن البكر، والرئيس القذافي، وحاكم أبو ظبي، وأمير البحرين ، وأمير قطر..
وها أنذا أنفذ رغبة حبيبتي ، التي تتمدد على إيوانها العربي الوثير .. وتغني..
فيا ليت غناء حبيبتي يطول...

١٢ – ١١ – ٧٣

عن موت البجع والأطفال...

تعرفت هذا الصيف على الموت بصورة شخصية..
قابلته وجهاً لوجه في قرية (لوتون) في شمال بريطانيا، ورأيت تقاطيع وجهه بالتفصيل..
كان يلبس معطفاً داكناً ، وينتقل بعربته في حقول الريف البريطاني، ليجمع الأزهار النادرة، ويصطاد الأسماك النادرة، ويدعو الأطفال إلى نزهة صباحية معه في غابات المنطقة، وعلى ضفاف بحيراتها.

وكان جميع الأطفال يداعبون حصان عربته الرمادي، ويتبعونه بلا تردد..
وتوفيق كان من جملة الأطفال الذين ركبوا العربة، واستجابوا لنداء الغابات، وأصوات الجنادب الليلية، واغراء بحيرات منطقة Lake District حيث ينام الشاعر الانكليزي العظيم ووردثورث على سرير من المطر الأزرق.. ويتغطى بشراشف الريح والثلج..
لماذا يحب الأطفال ركوب عربة الموت ؟
لماذا يتعلقون بمعطف الحوذي ، ويعجبون بحصانه ذي العنق الطويل، والحوافر الذهبية ؟
لماذا يفضل الأطفال أن يلعبوا في حدائق الله ..على أن يلعبوا في حدائقنا ؟.
لماذا يحبون الألعاب السماوية، ويفضلون القطارات التي تتجه إلى المجهول.. على القطارات التي تتجه إلى المعلوم؟.
لماذا يمد الأطفال أصابعهم – كراقصات الباليه – إلى العوالم الضوئية .. ونحن نمد أصابعنا إلى المستنقعات الأرضية ؟.
لماذا يتصرف الأطفال على طريقة الأنبياء .. والصوفيين .. ونتصرف نحن على طريقة السماسرة والملاكين ؟.
لماذا يسعد الأطفال بحضور الموت .ونشقى به ؟.
لماذا يتناولونه كانه قطعة حلوى .. ونتناوله نحن كأنه زجاجة ديمول؟..

إن رحيل توفيق المفاجئ ، أكد لي حقيقة . لم أكن أعرفها. وهي أن الصغار أشجع منا. وأكثر منا قدرة على فهم طبيعة هذه الرجلة التي يسمونها الموت..
إنهم يستقبلون الموت بحدسهم، ويدركونه إدراكاً ميتافيزيكياً وفلسفياً نعجز نحن عن الوصول إلى مستواه..
قبل أن يموت توفيق بأيام، قال لأخته هدباء التي سافرت معنا إلى لندن: أتعرفين يا هدباء ماذا يخطر ببالي أن أفعل؟ أنني سآتي بسيارتي من القاهرة، وأبيعها في لندن، وأعيش الحياة طولا وعرضاً.
وعندما قالت له هدباء :وإذا انتهت فلوس السيارة فماذا ستفعل؟ أجابها على الفور: لا تخافي.. سأموت أنا والسيارة معاً...
وذات يوم، كنت أتمشى مع توفيق في اكسفورد ستريت، ورأينا في إحدى الواجهات قميصاً أزرق مخططاً من النوع الذي يعجبه، فقلت له: ما رأيك أن نشتريه؟ قال: ولماذا الاستعجال؟ إن القميص سيبقى.. ولكن هل سأبقى أنا؟.

والحقيقة، أن توفيق كان يخطط للرحلة، بسلوكه وكلامه، ولكنه كان يحتفظ بسره في داخله..
كان يخاف أن يجرحنا إذا أخبرنا عن نيته في الرحيل، لذلك جمع أوراقه وثيابه بصمت، وذهب إلى الريف البريطاني، ليركب العربة التي كانت تنتظره ..وليموت بنفس الطريقة الشعرية التي مات بها ووردثورث...

إن موت الأطفال، مثل موت النجوم، ومثل موت البجع الأبيض. ومثل موت الأسماك الملونة في أوانيها البللورية.. يخلع النفس، ويطفئ قرص الشمس..
وإذا كان حراماً أن يموت البجع النهري، ويتناثر ريشه الأبيض .. بهذه الصورة اللامعقولة.. وإذا كان موت الأسماك الصغيرة هو مأساة لا يحتملها البحر، فإن الإيمان بمن خلق البجع، والسمك، والأطفال، يبقى حبة الفاليوم الوحيدة التي نلجأ إليها لقهر مواجعنا..

وما دام عقلنا – بكل عجزه ومحدوديته – لا يستطيع أن يفسر موت الورد ، وموت الأطفال ، وما دام الطب – بكل غروره وادعاءاته، وأشعته ومختبراته – لا يستطيع أن يقول لنا لماذا يموت فتى في الثانية والعرين ... وتعيش السلحفاة النهرية ألفاً ومئتي عام..
وما دام الأطباء، يقفون كالمجاذيب، أمام بطن امرأة حامل.. ولا يستطيعون أن يجزموا إذا كان الذي يتحرك في أحشائها هو طفل، أو عصفور، أو نجمه..

وما دامت كل قلوب البلاستيك التي زرعها الدكتور برنارد وفريقه الطبي، ليست سوى عجلات احتياطية.. ركبوها على سيارات مستهلكة.. وما دام فن جراحة القلب، كالفن الإسكافي، يرقع جلد الحذاء .. ولكنه لا يعيده جديداً...

وما دام نهر الموت يجرفنا هذا الجرف الجماعي ، ويقذفنا إلى الضفة الثانية، دون أن يكون لدينا الوقت للرفض أو الاحتجاج ..
وما دمنا لسنا أكثر من دمى في مسرح العرائس.. تحركنا يد المخرج حيث تشاء .. ومتى تشاء..
فليس أمامنا سوى الاعتراف بمؤلف الرواية، ومخرجها وموزع أدوارها..
وإذا سألتموني عن اسم هذا المخرج الكبير.. قلت لكم :
هو الله..

١٠ – ٩ – ١٩٧٣

هل احترق بنار الشعر ؟

سامحوني إذا قدمت لكم للمرة الثالثة خبز الأحزان...
كان بودي أن أغير قائمة الطعام، فأقدم لكم فطائر محشوة بالفرح، وكافياراً من بحر قزوين، وسيجاراً مستورداً من هافانا...
كان بودي أن أغيّر موسيقى باخ، وأغيّر هذا الجو الرمادي الذي يلف غرفة الطعام.
ولكن من أين أشتري خبز الفرح؟
إن كل مخابز بيروت لا تبيع إلا خبز الأحزان..

أتناول حبة فاليوم، وأحاول أن أنام...
أحاول أن ألغي بطريقة كيميائية حواسي الخمس..
أحاول أن أختم بالشمع الأحمر أبواب ذاكرتي ... لأمنع عصافير الماضي من مهاجمتي بمناقيرها الشرسة..
أحاول أن أنساه بطريقة كيميائية.
ولكنه كان نخلة عمري .. فكيف يمكن لحبة الفاليوم أن تقطع شجر النخل؟..

يوصونني بالليبريوم...
كذبة جديدة موضوعة في زجاجة .. اشتريتها .. وأحاول أن أرشو بها ذاكرتي..
عشرون حبة ... كلما أخرجت واحدة منها ، خرج لي توفيق كما تخرج اللؤلؤة من محارتها..
ولكنه كان خاتم الذهب في اصبعي، فكيف يمكن لحبة الليبريوم أن تسرق خاتمي الذهبي ؟

كل طبيب أذهب إليه يعاملني كشجرة...
يفحص جذعي ، وأوراقي ، وأغصاني .. ويتجاهل جهازي العصبي..

يتجاهل غدد الدمع المخبوءة في عيون الشجر.
يظن أن الأشجار لا تبكي ... ولا تتوجع لفراق عصافيرها المهاجرة في أول الخريف...
يظن أن الأشجار لا تتذكر أولادها...
يحاول أن يشرح لي أن الطب الحديث يعتبر الغدد الدمعية كالزوائد الدودية ، لا قيمة لها في جسد الإنسان..
يا سيدي الطبيب!
هل يمكن أن تشرح لي إذن، كيف سينزل المطر، وينبت العشب، وتمتلئ بحار العالم..
هل يمكن أن تقول لي – إذا صادرت مني دموعي – كيف سأكتب الشعر ؟.

اكتشفت اليوم، أن الكتابة عنه هي أفضل طريقة لاستحضاره. كلما شرعت في الكتابة ، أسمع صوت خطاه على الورقة، وحفيف ملابسه وهو يركض بين الحروف، كما يركض أرنب بين سنابل القمح..
يتسلق على (الألف .. (ويجلس على (اللام) .. ويستلقي على (السين) .. وينام حين ينعس في داخل (العين... (
لن ألجأ إلى الوسائل القديمة لاستحضاره ، كإحراق البخور ، والصندل، واستخارة فناجين القهوة، واللجوء إلى وسيط..
فما دام توفيق موجوداً في حروف الأبجدية .. وما دمت أستطيع أن أراه وأن أسمعه.. كلما فتحت غطاء القلم...
فسوف أواصل الكتابة...

أعطوني ساعته بعد موته بثلاثة أيام..
كانت الساعة تضرب .. وقلبه كان متوقفاً .. يا للمفارقة...
هل صارت أعمار الساعات، أطول من أعمارنا ؟

هاجمتني طوال هذا الأسبوع فكرة غريبة، ظلت تحوم داخل رأسي كطائر أسود ..الفكرة تتعلق بقوانين الوراثة الشعرية، وتأثير الشعر على التركيب العضوي لأولاد الشاعر.
ولما كان الشعر هو مهنة الاحتراق والاحراق، وكان الشاعر هو ذلك الرجل الذي ينقل المواد المتفجرة تحت معطفه ، وليلغم بها العالم.. فلماذا نستبعد احترافه الكتابة، فإنه يضع أولاده في

منطقة الخطر..

إنني أكتب الشعر منذ خمس وعشرين سنة، وابني توفيق مات في الثانية والعشرين، أي أن عمر شعري وعمر ابني متقاربان.

فهل اعتبر نفسي مسؤولاً عن هذا العطب غير الطبيعي في قلب ولدي؟

خمس وعشرون سنة، وأنا أحمل الزلازل في أعماقي، وأركض على أرض من الصفيح المشتعل، والبراكين المفتوحة الأفواه ...

خمس وعشر ون سنة، وأنا أبتلع الأسياخ المشتعلة على طريقة الهندوس، وأنزف كالعصفور على صدر حبيبتي.. أو على صدر وطني...

خمس وعشرون سنة، وقلبي يقفز كفهد استوائي بين الأدغال، حرارة عواطفي لم تنزل عن الأربعين خطاً واحداً...

كان قلبي يأخذ كل دقيقة آلاف الأشكال والأحجام..

كان مرة يأخذ حجم البرتقالة، ومرة يأخذ حجم كوز الصنوبر، ومرة يأخذ حجم فلسطين...

كان الحب عندي عملية انتحارية، أذهب إليها .. ووصيتي في جيبي.

وكان الشعر عندي معركة بالسلاح الأبيض لا أخرج منها إلا قاتلاً أو مقتولاً..

كان قلبي دائماً مدينة مستنفرة للحرب .. شبابيكها مطلية باللون الأزرق ، وصفارات الانذار فيها لا تتوقف عن الصراخ..

هذا هو قلبي الذي أعطيته لتوفيق..

فهل تراني مسؤولاً عن هذا المحرك المعطوب الذي أورثته إياه ؟..

هل أنا مشترك بقتل ولدي ؟

جاوبوني .. فإنني أتعذب..

١٧ – ٩ – ٧٣

عيد ميلاد جرح...

اليوم يتذكر الجرح عيد ميلاده ... فيبكي..
وتحتفل الدمعة بمرور عام على انحدارها..
ويحتفل الخنجر بمرور عام على إقامته في لحمي..
هل لاحظتم أن الجراح وحدها هي التي تملك ذاكرة قوية، وأن الفرح لا ذاكرة له..
الفرح عصفور من زجاج .. يرتفع عن الأرض عشرة أمتار .. ثم يقع على الأرض.. ويتهشم..
أما الحزن فهو هذه السنونوة السوداء التي تحمل أولادها، وتعشعش على شواطئ العين .. ومدخل القلب .. وترفض أن ترحل.

اليوم.. يخرج توفيق من أوراق الروزنامة .. بعد ثلاثمئة وخمس وستين ليلة .. نام فيها خارج البيت..
هذه أول مرة ينام فيها توفيق خارج البيت..
أو ل مرة يسافر من بين أهدابي .. ولا يقول أنه مسافر..
أين ذهب توفيق ؟
لماذا ترك سريره .. ودشداشته البيضاء .. وأقلامه .. وكتب التشريح والبيولوجيا والكيمياء العضوية .. وسيارة الموريس الفيروزية التي كانت فرسه الأغلى .. وحبه الأول والأخير..
أين اختفى توفيق ؟
هل ابتلعته سمكة من أسماك البحر ؟
أم نطحه وعل بري ؟. فمات شهيداً كأدونيس ؟.
أم حسبته الغابة شجرة من أشجارها .. ورفضت أن تعيده ؟
أم أخذته زهرة لوتس إلى قصرها المائي .. وتزوجته سراً ؟.
أم تراه سقط في بئر عميقة ، والتقطته إحدى القوافل وباعته لفرعون مصر..
لماذا خذلني توفيق ؟.
واختار الذهاب مع (امرأة العزيز)؟؟..
هل وجد فندقاً .. أحسن من قلبي ؟

منذ ثلاثمئة وخمس وستين ليلة..
غادر الفتى توفيق قباني شقته في شارع السيد بكري رقم ٥ في حي الزمالك بالقاهرة..

كان يلبس بلوفرا من القطن الأزرق كلون عينيه.. حتى لتكاد تقول أن يلبس سماء البحر الأبيض المتوسط..
مديد كرمح محارب روماني قديم .. وشامخ الرأس كغمامة .. وهادئ كوجه حكيم اغريقي..
عمره اثنتان وعشرون سنة .. وشعره أشقر كلون حقول القمح في تموز..

منذ العاشر من شهر آب ١٩٧٣ ، وأخبار توفيق مقطوعة ، وبريده لا يصل..
بحثنا عنه في كل مكان..
تقدمنا بشكوى إلى البوليس..
نشرنا صوره في كل الجرائد..
عممنا أوصافه على كل المخافر..
خصصنا جائزة كبرى لمن يعثر على خصلة واحدة من خصلات شعره الذهبي..

..بعد اختفاء توفيق بأيام..
تلقيت مكالمة هاتفية من عصفور لم يذكر اسمه .. قال لي أنه شاهد ثياب توفيق معلقة على شجرة من أشجار القمر..
ومنذ ذلك التاريخ .. وأنا أهز أشجار القمر .. شجرة .. شجرة .. علها تعيد لي ثياب حبيبي..

اعتذر المحققون عن مواصلة التحقيق في قضية اختفاء توفيق..
قالوا : إن أجهزة استخباراتهم لا تستطيع اكتشاف العطر الضائع.. وأنه لم يعد أمامي من طرق المراجعة سوى (الشكوى لله (..
وها أنذا أشكو حزني إلى أعظم سلطة قضاية يرجع إليها الإنسان .. وهي (الله..(
ومنذ رفعت أمري (إليه) .. بدأت أشعر بالراحة .. وأطمئن على أن توفيق يقيم في السماء .. في فندق من فنادق الدرجة الأولى.. وأنه منذ تركنا في السنة الماضية .. وهو يلعب في حدائق الله .. وينام في بساتين الله .. وينزل في ضيافة الله ..

سيارة (الموريس ميني) لا تزال تنتظر عودته .. تشتاق إليه .. كما تشتاق الفرس إلى فارسها .. وتقلق عليه ، كما تقلق الأم على ولدها المسافر..
آه .. كم كانت سيارته تشبهه..
آه .. كم كان يشبهها..

علاقة المفاتيح بحرف T تسأل عنه..
والنظارات السوداء تسأل عنه..
والمصحف الفضي الصغير المعلق على الزجاج الأمامي .. يسأل عنه..
من قال أن الهياكل المعدنية للسيارات لا تعاني من العشق كما نعاني ، ولا تذوب حنيناً كما نذوب ؟
من قال أن الحديد لا يبكي ؟
إذا لم تصدقوا .. فتعالوا واسألوا الجيران..
وسيخبروكم كيف تموء سيارة توفيق.. عندما ينتصف الليل .. كما قطة مفطومة عن الحليب..

يا حبيبي يا توفيق!
هل تصلكم الصحف إلى هناك ؟
وهل قرأت فيها أن أختك هدباء وضعت مولوداً ذكراً سمّته (توفيق) ؟
لقد كانت هدباء مصممة على أن تحمل بك .. وكانت متأكدة أن الذي في بطنها .. هو أنت..
وشاء الله أن لا يكسر أحلام هدباء فوهبها توفيق الثاني .. فكأنها من فرط شوقها إليك ..قد ولدتك..

١٢ – ٨ – ١٩٧٤

أوراق مهربة من الغرفة ٥٠٨

اليومية الثالثة

أصبحت متأكداً أن ذبحة القلب هي امرأة..
فهي لا تقرب النساء ، ولا تتعاطى معهن فعل الحب..
ولا تعاني من أي انحراف جنسي..

إن الرجال فقط هم محطّ اهتمامها .. وموضوع عشقها..

اليومية الرابعة

لماذا ينذبح الرجال وحدهم في قلوبهم . والنساء لا ؟..
أعتقد أن هذا يعود لاختلاف نوع الجهاز العصبيّ لدى كل منهما .. فالمرأة ، حسب تصوّري ، تتلقى الصدمات بجلدها الخارجي .. ودود فعلها هي ردود فعل خارجية..

الحزن يحفر التجاعيد على بشرة المرأة .. فتذهب إلى أخصائي في فن التجميل .. (فيشدشدها) .. وتستعيد عشر سنوات من عمرها..
بينما الحزن يحفر التجاعيد على قلب الرجل .. فيخسر عشر سنوات من عمره .. ذلك لأن جلدة القلب .. غير قابلة للخياطة والتفصيل .. والترقيع والتعديل..
قد تكون المرأة أقدر على الصراخ من الرجل .. ولكن الرجل أقدر على الحزن منها .. وقد تكون الغدد في عيني المرأة أكثر قدرة على إفراز الدموع .. في حين أن الرجل يكون في ذروة الفجيعة حين يكون عاجزاً عن البكاء..
المرأة عندما تعشق .. تستريح إذا تكلّمت . أما الرجل فينتحر بصمته..
هي تفلش عواطفها عليه كالنهار .. وهو يخبئها في سراديب نفسه، ويلقي عليها عباءات الليل..
عندما تحب المرأة تحب بصوت عال .. وتعبر عن حبها بالصورة والصوت..
أما الرجل فيمتصّ حبه ، كما تمتص ورقة النشاف قطرة الحبر..
ويتآكل قلبه تدريجياً .. كما يتآكل محرك السيارة من داخله...

اليومية الرابعة عشرة

لماذا تلبس جميع الممرضات في العالم اللون الأبيض ؟
من اختار لهن هذا اللون الأخرس الذي لا يصرخ ، ولا يفرح ، ولا يغضب ولا يرى .. ولا يسمع ؟.

من اختار لهن هذا اللون المحايد الذي لا تعرف إذا كان معك .. أو كان ضدك ؟.
من اختار لهن هذا اللون السيبيريّ الذي يزيد من شعورك بالنفي ، والغربة ، والموت برداً ؟.
قد يكون اللون الأبيض محتملاً لمدة يوم أو يومين مع شلة من الأصحاب في مراكز التزلج في سويسرا .. أو فاريا .. لكن الإقامة الجبرية مع اللون الأبيض إلى ما شاء الله .. تطوّق عينيك ، وأذنيك ، ورئتيك ، ونفسك ، بدائرة من الضجر الأبيض تضيق عليك شيئاً فشيئاً حتى تصبح نفسك من قسوة الحصار سمكة متجمدة في بحر الشمال..

اليومية الخامسة عشرة

لماذا لا تكون ثياب الممرضات كثياب مضيفات الطيران بستاناً من الألوان فيه الأزرق ، والوردي ، والليلكي، بحيث يكون لكل مستشفى لون خاص لثياب ممرضاته، كما لكل شركة طيران لون خاص لزيّ مضيفاتها ؟
فالمريض هو أيضاً مسافر على طائرة تطير بين برزخي الحياة والموت .. ومن حقه أن يستمتع برحلته كبقية الركاب..
لو أخذت إدارة المستشفيات باقتراحي ، لتقهقر الألم ، وانفتحت شهية المرضى ، وحجزوا مقاعدهم على كل الطائرات المسافرة إلى شواطئ الشمس ، والحب، والعافية..

٢٠ – ٥ – ١٩٧٤

التانغو الأخير .. في جنيف

نذهب إلى جنيف لنرقص.. !
وقائد الفرقة الموسيقية هو العازف الأميركي الشهير كيسنجر .. سنرقص هناك التانغو ، والفالس

، والروك أندرول ، وسنتلوى ذات اليمين وذات اليسار ، وسنقف على رؤوس أصابعنا كراقصات الباليه، وسندور على كواحلنا كما يفعل الراقصون القوقاز .. يتأخذنا الحال من شدة الدوران .. كراقصي الزار والمولوية..
الراقصون عرب .. والفرقة أجنبية .. وقائد الأوركسترا يهودي .. والكرنفال في سويسرا .. والدعوة عامة .. و(شرفونا تجدوا ما يسركم (

ليست هذه رقصتنا الأولى .. فقد سبق أن رقصنا في خيمة الكيلومتر ١٠١ ، ولكن سهرتنا كانت فاشلة..
فقد كانت المقاعد غير مريحة ، والخدمة رديئة ، وساحة الرقص ضيقة ، والغارسونات يلبسون القبعات الزرقاء ، ورائحة البارود تملأ الأنوف، وطلقات الرصاص تمر من تحت أقدام الراقصين..
لم يكن جو خيمة الكيلو متر ١٠١ رومانتيكياً .. ولا حوار الراقصين شاعرياً .. لذلك اضطر كيسنجر أن يحمل طبله.. وساكسوفونه .. وأفراد فرقته الموسيقية . ويذهب معهم إلى سويسرا حيث الجبال المكسوة بالثلج ، تسمح بالتزلج ، والرقص على الجليد..
إن العرب يرقصون على الجليد للمرة الأولى..
ورياضة التزحلق على الجليد من أخطر أنواع الرياضات ، التي ارتبطت بسكان المرتفعات في البلاد الشمالية . لذلك فإن مزاولتها من قبل سكان المناطق الحارة ليست مأمونة العواقب ، لأن الكسور فيها لا تجبر بسهولة..
لقد جرب العرب حظهم مع أميركا واسرائيل على سجادة من الرمل فلا بأس أن يجربوا حظهم معهما على سجادة من ثلج سويسرا ..
غير أن قلبي يقول لي أن النوم على الثلج ، لا يقل ضرراً وأذى عن النوم على الرمل .. فالعواصف الثلجية والعواصف الرملية تتشابه في نهاية الأمر..

هل هو كيسنجر يعود مرة أخرى إلينا ليعزف عزفاً منفرداً على أعصابنا .. وليقرأ لنا شعراً سريالياً..
لا أدري لماذا تذكرت الشعر السريالي ، والرسم السريالي ، وأنا أتابع تصريحات كيسنجر وهو ينطّ كالسنجاب من طائرة إلى طائرة .. ومن عاصمة عربية .. إلى عاصمة عربية..

هل أصبحت قضية فلسطين قصيدة سريالية ؟

وهل أصبح الفلسطينيون رموزاً .. وكنايات .. وكلمات متقاطعة في القاموس الدولي ؟

لقد جربنا السريالية في الفن ، وجربناها في السياسة ، وجربناها في الأمم المتحدة.. فماذا كانت النتيجة ؟

مجموعة من القرارات الرمزية كتبت بصيغة مسرح اللامعقول . ولا يستطيع تفسيرها إلا الله.. والغريب أننا رغم كل ما أصابنا من كوارث ، وكسور ، ورضوض، بسبب إيماننا بالرمزية والسريالية السياسية ، لا نزال متحمّسين لها، ولا يزال لدينا الصبر لتفسير الخط المسماري والهيروغليفي للقرارات الدولية..

القصيدة الواقعية الحقيقية التي كتبناها في حياتنا ، كانت حرب السادس من اكتوبر .. ثم توقفنا عن الكتابة .. ورجعنا إلى دفاترنا العتيقة .. واشتقنا إلى أيام الرقص والتثنّي .. وزمان الوصل بالاندلس.

وأنا لا أعتراض لي على الرقص .. حين يكون الرقص متكافئاً .. وحين يكون شريكنا في الرقص عادلاً ، ومتحضراً ، ومستعداً لتطبيق القواعد الأساسية لهذا الفن .. ولكن تجاربنا الماضية كشفت لنا أن اسرائيل تريد أن تحتل ساحة الرقص بأكملها .. بحيث تبقى رجلها اليمنى مزروعة في شرم الشيخ .. ورجلها الثانية مزروعة في القدس ومرتفعات الجولان..

فعلى أي أساس سيكون الرقص ؟ . إذا كانت رئيسة وزراء اسرائيل ووزير خارجيتها ، ووزير دفاعها، مصمّمين على وضع شروط المراقصة ، قبل الدخول إلى قاعة الرقص..

وعلى أي أساس سنرقص ؟ إذا كانت اسرائيل تصرّ على أن يبقى الفلسطينيون، وهم أساس الإحتفال كله ، واقفين خلف أبواب قصر الأمم في جنيف، يتفرجون على الرقص ولا يستطيعون المشاركة فيه..

..وبعد فأنا لست ضد الرقص القائم على أسس حضارية، وأخلاقية، وتاريخية، وإنسانية. لكنني بكل تأكيد ضد كل الرقصات البربرية والهمجية التي تنتهي بالمشي على أجساد الشعوب. وبالرغم من أننا ذاهبون لنرقص التانغو الأخير في جنيف .. فإنني أبقى دائماً من أشدّ المتحمّسين لرقصة السيف والترس...

٢٤ – ١٢ – ١٩٧٣

كازانوفا ... يبكي في دمشق

"إنني لا أحب السوريين ، ولا أحمل لهم مشاعر الود" ..
هنري كيسنجر

هذا التصريح الدراماتيكي ، أدلى به إلى مجلة" نيوزويك" الأميركية العاشق الكبير، ودونجوان هذا العصر، وصريع الغواني، البروفسور هنري كيسنجر..

وليس لنا بالطبع، أن نناقش العشاق في ما يحبون وفي ما يكرهون، فالحب نعمة من عند الله، تأتي أو لا تأتي .. والكراهية ، هي الأخرى ، قناعة داخلية لا سبيل إلى تجنبها أو السيطرة عليها..
ونحن الذين ولدنا مع العشق ، وسنموت معه، لن نسمح لأنفسنا بالتدخل في خصوصيات الرجل .. فهو حر في حبه .. كما هو حر في كرهه.. وليس من طبيعتنا أن نفرض على الرجل حباً لا يريده وعاطفة لا يحس بها..
لكن هذا لا يمنع دمشق – وهي جميلة، ورقيقة وعذبة ، بشهادة جميع الأنبياء والعاشقين والسائحين – من أن تتساءل بينها وبين نفسها:
"لماذا لا يحبني هذا الرجل ؟"
"ما هو نوع النساء، والمدن، التي يحبها كيسنجر؟"
"ما هو مفهوم الحب والوصال لديه؟"
لا بد للإجابة على هذه الأسئلة، من اللجوء إلى التحليل النفسي، ودراسة خلفية الرجل، وجذوره التاريخية والعضوية والوراثية.
فهنري كيسنجر ينتمي إلى العرق السامي، ونظرته إلى الأشياء ، ومواقفه ، وتفكيره وغرائزه تستقي من المنابع السامية..
وولادته في ألمانيا، وهجرته بعد ذلك إلى الولايات المتحدة، لا تغير جذوره، وشكل خلاياه،

وتركيب دمه..
ولذلك فإن عواطف الحب عنده، ليست عواطف ميتافيزيكية وصوفية، كعواطف غوته أو ريكله.. وإنما هي عواطف واقعية وعملية كعواطف الملك سليمان...
ومن أجل هذا، فإن مفهوم الوصال عند كيسنجر، هو مفهوم كازانوفي ودونجواني، يقوم على أساس الإمتلاك المطلق، والمتعة المتسعجلة، سواء كان الموضوع جلسة حب.. أو جلسة مفاوضات.. وسواء كان الطرف الآخر .. امرأة .. أم دولة..
ويبدو لي أن كيسنجر – لوفرة انتصاراته الدبلوماسية والنسائية أصبح يكره سماع كلمة (لا) ، مهما كان مصدرها، لأنه يعتبرها تحدياً لفحولته .. وانتقاصاً من فروسيته..

ومن سوء حظ كيسنجر أنه وضع اسم دمشق وعنوانها ورقم تلفونها في مفكرته المعطرة الحبلى بأسماء آلاف العشيقات.. وكان في ذهنه صورة لقاء شاعري، في أحضان الورد الجوري. والحور .. والصفصاف .. وضوء القمر..

ولكن العاشق الخرافي . وجد نفسه فجأة أمام الرئيس حافظ الأسد.. ففتح حقيبته .. وأخرج (البيك أب .. (وأسطوانات الجاز والروك.. وزجاجة براندي.. وطلب من مساعده سيسكو أن يلحقه بصحن فستق حلبي .. ويعطيه قصيدة الغزل التي نظمها في الطائرة.. ليطري بها الجو.. ويكسر جليد الصمت..
غير أن وجه الرئيس الأسد، ظل وجهاً نحاسياً كوجه سيف خارج لتوه من غبار المعركة .. وظلت قسماته هادئة، كالنقوش المحفورة على حجارة تدمر.. وظل صوته عميقاً كأنه قادم من كهوف الزمن، وأعماق البحر..
كان في ذهن كيسنجر أنه سيحضر حفلة) بارتي) .. وكانت هموم السوريين هموماً أخرى .. تتعلق بالأرض والتاريخ..
كان كيسنجر يفكر بزجاجة البراندي .. وكان حافظ الأسد يفكر بزجاجة الدم التي امتلأت بدم الشهداء السوريين الذين سقطوا في حرب تشرين...
وظلت اسطوانة الروك تدور على الفاضي .. لأن السوريين ليسوا من هواة الرقص...
وضع حافظ الأسد ملفات القضية على الطاولة.. ووضع كيساً فيه تراب الجولان.. وكيساً فيه تراب فلسطين، وكيساً ثالثاً فيه رماد المسجد الأقصى .. وكيساً رابعاً فيه جراح المسيح.. وكيساً خامساً فيه قدر الأمة العربية.. وكيساً سادساً فيه أسماء الأسرى الاسرائيليين الذين تحتفظ بهم

سورية...
لكن كيسنجر مد يده إلى الكيس الأخير .. ونسي بقية الأكياس.
وطبعاً، سحب السوريون الكيس من أمامه.. فوقعت زجاجة البراندي على الأرض ..وتهشمت الأسطوانة.. وباظت الحفلة..

يقولون عن كيسنجر إنه خلاصة الذكاء .. وإنه فلتة زمانه، وأعجوبة عصره. فكيف فات هذا العاشق الكبير أن يدرس قبل مجيئه إلى سورية قاموس الغزل الدمشقي ، وألف باء العشق عند أهل الشام ؟.
كيف فاته أن يقرأ أفكار قاسيون، وميسلون ، والجامع الأموي. والكتابات المنقوشة على قبر صلاح الدين؟
إن دمشق ليست ضد الحب، ولكنها ضد الاغتصاب... وليست ضد الوصال، ولكنها ضد الاحتلال.. وليست ضد الزواج ولكنها ضد مبدأ المتعة..
وأنت بعد ذلك حر في أن تحب بلدي أو لا تحبها .. فدمشق هي وردة العالم العربي، ولؤلؤته، وسيفه، ولن يضيرها في شيء أن لا تكون حبيبتك...

١٨ – ٢ -١٩٧٤

الخروج من ألف ليلة وليلة..

"إنتهى عصر ألف ليلة وليلة .. وعلينا أن نتعامل مع العرب بعد اليوم على أساس جديد"..
ميشال جوبير
وزير خارجية فرنسا

يضع ميشال جوبير، رئيس الدبلوماسية الفرنسية ، في هذه الكلمات القليلة، أصابعه على مشكلة

العرب المعاصرين، ويشخص بذكاء السياسي والمثقف، وجعنا التاريخي والوجودي..
إنه يختصر المأساة، ويدين شرق الخرافة والحلم، ويعتبر (ألف ليلة وليلة) مسؤولة مسؤولية كاملة، عن كساحنا الحضاري والعقلي وشللنا النصفي الذي استوطن عظامنا خمسمئة عام.
ولو أن مفكراً أو كاتباً عربياً قال مثل هذا الكلام، لسحبوه من قدميه، وجرجروه في الشوارع، وضربوه بالبندورة والبيض الفاسد، واتهموه بالتجسس، والعمالة والاعتداء على ضريح التاريخ وعظام الأجداد...
لذلك أحمد ربي ألف مرة، لأن الذي أدان (ألف ليلة وليلة) هو رجل فرنساوي إسمه ميشال حوبير، ويشتغل وزيراً لخارجية فرنسا، لا أنا...
ذلك لأنني لا أزال أتذكر طعم (المغراية).. ولا تزال آثار الحروق التي تركها الغراء الساخن واضحة على أصابع يدي اليمنى...
ففي عام ١٩٥٤ وكنت أنئذ أشغل منصباً دبلوماسياً في لندن .. نشرت قصيدة عنوانها (خبز .. وحشيش .. وقمر ..) هاجمت فيها الغيبوبة بكل حالاتها، ورفعت فيها سيفي في وجه الدراويش والحالمين والمسطولين، وطلبت فيها من وطني العربي، أن يرمي نراجيله، ونرابيشه، وطرابيشه إلى الشيطان، ويخرج من سراديب الغرائز والأحلام وتأليف المواويل، ليلحق بقطار العلم والتقنية.. وينتصب كالمارد في وجه حضارة مستعجلة، لا تتعامل مع البصّارات وقارئي الكف، والمنجمين...
ولكن نادي المنتفعين من ضوء القمر.. وقراءة الكف .. وضرب المنادل .. واستخارة النجوم .. وجمعيات دفن الموتى ..والذين اتخذوا إقامتهم الدائمة في مقبرة التاريخ .. خرجوا من أكفانهم وساروا في مظاهرة طالبوا فيها بمحاكمتي .. وقطع رأسي .. لأنني طلبت من البلدية في ذلك الحين ، أن ترسل بولدوزراً كبيراً يجرف ثعابينهم..
وسماوراتهم.. وطبولهم، وحجاباتهم ..ووصفات الطب العربي التي كانوا يضحكون بها على العاقرات من النساء ..
..ولكن رأسي بقي في مكانه .. لأن التقدميين العرب في عام ١٩٥٤ وقفوا إلى جانبي .. ومنعوا سلخ جلدي..
إنني لا أحاول هنا غيقاظ جرح قديم .. ولكنني أتذكر فقط بعض تفاصيل المعركة التي دخلناها مع أهل الكهف في الخمسينات ، واستطعنا في نهايتها محاصرتهم في مغارتهم الحجرية .. وتجريدهم من بواريدهم العثمانية القديمة .. وختم عقولهم بالشمع الأحمر..

إنني أتذكر ، أننا حين اقتحمنا باب المغارة ، كانت شهرزاد ممدة بقميص نومها الحريري على الأريكة، وفي يدها عنقود عنب مثلج.. تفرطه حبة .. حبة.. في فم شهريار .. وهو مستسلم للحلاوتين.. حلاوة العنب .. وحلاوة الأصابع التي تقدم العنب .. وكانت الجواري وراء الأبواب يحملن أباريق الفضة ليغسلن بالماء أصابع شهريار وأطراف فمه حين يفرغ من أكل الفاكهة وأكل لحم عشيقاته..

كانت شهرزاد تقول كلاماً فارغاً .. وكان شهريار إلى جانبها مرمياً كحقيبة فارغة. وكان التاريخ يبصق عليهما قرفاً وخجلاً..

إنني لا أحاول أن أكون مؤرخاً .. ولكنني أتذكر فقط حقبة تعيسة من تاريخنا.. كانت فيها شؤون الدولة العربية وأقدار رعاياها وسياساتها الداخلية والخارجية تتولاها (أرتيست) فارسية الأصل إسمها "شهرزاد..."

قد يقول قائل: ولكن هذا فولكلور متصل بصميم التراث، وهو لون من القصص الشعبي موجود لدى سائر الأمم. فلماذا تهاجم كتاب (ألف ليلة وليلة) بمثل هذا العنف؟

الواقع أن كتاب) ألف ليلة وليلة) لم يكن في حياتنا كتاباً عادياً ككل الكتب التي قرأناها .. ونسيناها..

ولكن الخطورة في (ألف ليلة وليلة) أنها تحولت من نص مكتوب إلى" سلوك" اجتماعي، وثقافي وسياسي ومن صورة ذهنية إلى واقع يومي .. ومن نكتة تاريخية إلى شهادة عار معلقة على صدورنا..

إن أسوأ ما في (ألف ليلة وليلة) هو أنها أصبحت صورتنا (الرسمية) الوحيدة التي يتداولها العالم . وكل نشرة سياحية تصدر في أوربا عن الشرق ، لا بد أن يظهر فيها شهريار، وهو منبطح كالخنزير البري على عشرين مخدة.. ومن حوله جيش من المحظيات يحملن المراوح ، ويرقصن حتى الصباح لأكبر بلطجي عرفه التاريخ..

إذن ، فنحن لسنا ضد الفولكلور، ولا ضد الأساطير والرموز الجميلة التي يعبر بها الشعب عن نفسه ، وعن أحلامه وعواطفه، ولكننا قطعاً ضد المستنقعات الفولكلورية التي تجعل من (علي بابا والأربعين حرامي) ومن (لص بغداد (ومن قرصان محترف (كالسندباد البحري) ومن ملك مصاب بالشيزوفرانيا (كشهريار) نماذج أدبية وسياحية نصدرها إلى العالم..

إن من أهم إيجابيات حرب تشرين على صعيد الأدب الشعبي ، أنها اغتالت كتاب (ألف ليلة وليلة) واغتالت أبطاله الذين كانوا يعومون كقطعة الفلين على سطح الحياة.. ويعيشون في عدمية مطلقة..

فلنحتفل بسقوط ألف ليلة وليلة..

وبولادة فولكلور عربي جديد..

٢٥ — ٢ — ١٩٧٤

كولومبوس
يهرب من نيويورك

لم يعد مقبولاً ولا معقولاً أن تبقى مدينة نيويورك مقراً لهيئة الأمم المتحدة . كما لم يعد وارداً أن تكون الأرض الأميركية المكان الصالح لتقرير مستقبل الإنسان ومستقبل البشرية..

لأن مواقف الولايات المتحدة الأخيرة أصبحت مواقف ضد الإنسان .. وضد البشرية..

وجزيرة مانهاتن لم تعد واحة الحرية والأحرار.. وكلنها صارت سجنهم .. ومقصلتهم..

لقد قبلت دول العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية أن تكون الولايات المتحدة الدولة الراعية والمضيفة، تقديراً للدور الذي لعبته في دخول الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، واعترافاً بفضلها في إلقاء قنبلتها الذرية) الجميلة) على هيروشيما.. وإنقاذ العالم من جيوش هتلر والميكادو .. وخطر الإجتياح النازي..

في ذلك الوقت، كانت الولايات المتحدة رمزاً للحرية والعدالة ، وموطناً للمثل العليا، وكان التراث الإنساني العظيم الذي تركه لها الرئيسان جورج واشنطن، وابراهام لينكولن، لا يزال متوهجاً ف وجدان شعوب العالم، ولا تزال ناره تضيء طريق المعذبين في الأرض.

وتحت تأثير هذه الفكرة ، وافقت دول العالم على نقل المنظمة الدولية من القارة القديمة إلى القارة الجديدة.. وحلت نيويورك محل جنيف.. واستولت منظمة الأمم المتحدة على تركة عصبة الأمم..

ثم تطورت الأمور مع الزمن، وأخذت اتجاهاً معاكساً لسير التاريخ.. فأضاعت الولايات المتحدة ذاكرتها القومية، وتبرأت من تراثها، وتخلت عن مواقعها القديمة إلى جانب المظلومين.. لتنضم إلى معسكر الظالمين..

وقد ساعدها ثراؤها الفاحش، وقدراتها الإقتصادية الهائلة، على إذلال القارة الأوربية التي خرجت من الحرب الثانية منهوكة القوى، ومحطمة بشرياً واقتصادياً، كما ساعدها على أن تأخذ مكان الإستعمار القديم في القارتين الإفريقية والآسيوية، والتدخل – بواسطة عملائها ومخابراتها – في الشؤون الداخلية للعالم الثالث..

وقد ظل المد الأميركي يتعاظم ، حتى صارت منظمة الأمم المتحدة (شركة أميركية محدودة الأسهم – مركزها نيويورك) تتصرف أميركا بمقدراتها ، وصياغة قراراتها، وأصوات مدوبيها.. ونعتبرها دكاناً من دكانين الجادة الخامسة (فيف افينيو.(

لكن العالم بعد ثلاثين سنة تغير شكله كثيراً .. وتغير عقله كثيراً .. وتغيرت أفكاره كثيراً...

وقف الإقتصاد الأوربي على قدميه...

وسحق الينّ الياباني عظام الدولار الأميركي..

واستطاع الثوار في آسيا وافريقيا أن يحتلوا مقاعدهم في هيئة الأمم المتحدة..

وكسر ثمانمائة مليون صيني زجاج النوافذ ودخلوا بالقوة إلى قاعة الجمعية العمومية.. ومدوا ألسنتهم للمندوب الأميركي.. وانتقل (دفتر الشيكات) من يد أميركا. . إلى يد العرب.. وخرج الأمر نهائياً من يد أميركا، وتقلص سلطانها من دولة تلعب بالكرة الأرضية كما تريد .. إلى دولة تلعب بها شعوب الكرة الأرضية كما تريد..

وهذا الشعور بالنقص والإذلال، الذي تعرضت له الولايات المتحدة في الدورة الأخيرة للجمعية العمومية، أفقدها توازنها ودفع أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ إلى المطالبة بانسحاب أميركا من المنظمة الدولية، والإمتناع عن دفع مخصصاتها المالية،بعد أن تحولت على يد الكتلة العربية، والكتلة الآسيوية والإفريقية، والكتلة الإشتراكية إلى (منظمة بربرية.(

وآخر قرار اتخذته لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ يقضي بقطع مساهمة الولايات المتحدة في منظمة الأونيسكو (١٦ مليون دولار) مالم تتراجع عن قراراتها المناوئة لاسرائيل...

إنه لمن المحزن حقاً أن تهبط الولايات المتحدة إلى هذا المستوى اللا معقول في عداوتها للشعب الفلسطيني.. وأن يدفعها عشقها الأعمى لاسرائيل .. إلى معاداة إدارة التسعين بالمئة من سكان الكرة الأرضية.

من المحزن أن يقف العالم كله تقريباً إلى جانب منح الفلسطينيين حق الإستقلال الوطني والسيادة، والسماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالمشاركة في كل نشاطات المنظمة الدولية بصفة مراقب..
وأن تقف الولايات المتحدة في الجانب المقابل مع حفنة من الدول لا تقدم ولا تؤخر.. ولا تنفع ولا تضر.. ولا يشتاق إليها أحد سواء غابت أم حضرت.. مثل كوستاريكا.. ونيكاراغوا..
وايسلندا...
طبعاً نحن لا نتدخل في شؤون العشاق الداخلية.. ولا نعترض على الموت عشقاً.. شريطة أن يكون المعشوق الذي نقرر أن نموت من أجله (حرزاناً...(
أما أن تموت أميركا بحزبيها الجمهوري والديمقراطي في سبيل خمسة أو ستة ملايين صوت يملكها اليهود، فهذا لا يسمى عشقاً ولكنه محاولة لمضاجعة أرملة ثرية.. طمعاً في دفتر شيكاتها...

نكرر مرة أخرى أننا لسنا ضد العشق الأميركي – الاسرائيلي .. فالعشق شعور من عند الله يؤتيه من يشاء .. وهو على كل شيء قدير..
كل ما نريده .. هو رخصة من بلدية نيويورك تسمح لنا بنقل بناية الأمم المتحدة كما هي .. من مانهاتن.. إلى ضفاف بحيرة لوزان في جنيف..
فسويسرا بلاد جميلة، وهادئة، ومحايدة.. في حين أن نيويورك مدينة سقطت عنها صفة الحياد..
حتى يقال أن حاكمها يعينه مجلس الوزراء الاسرائيلي.. وإن التوراة فيها هي الكتاب الـــ Best Seller
لقد كان ٢٤٠ ألف متظاهر يهودي طوال مناقشة قضية فلسطين في الجمعية العمومية، يطوقون مبنى الأمم المتحدة كالطاعون ..ويصرخون كفوج من الذئاب هاجمه الشتاء على حين غره...
إن نيويورك في تصوري واقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي، كسيناء، والضفة الغربية، وقطاع غزة ، والجولان..
لذلك فإن المنطق يقضي بأن تنضم الولايات المتحدة إلى صفوفنا. وتطالب مثلنا بالتحرير ... وبالإعتراف (بحقوق الشعب الأميركي) وسيادته على أرضه...

إن أبواب منظمة التحرير الفلسطينية مفتوحة دائماً أمام المضطهدين والمسحوقين والباحثين عن الشمس والحرية.. ويوم تقرر الولايات المتحدة أن تتحرر من استعمار تل أبيب لها.. وتسترد

سلطتها على ترابها القومي.. فبإمكانها أن تتقدم بطلب انتساب إلى منظمة التحرير ..التي سوف تنظر في طلبها بعين العطف...

٩ – ١٢ – ١٩٧٤

محاولة لقراءة كف معمر القذافي

العالم العربي دخل مرحلة الكهولة...
لذلك فهو لا يفهم طفولة معمر القذافي.
والعالم العربي متعصب للنثر...
لذلك فهو لا يفهم شاعرية القائد الليبي.
يتصوره البعض شيخاً من مشايخ الطرق الصوفية ، ويتصوره البعض واحداً من جماعة اخوان الصفاء، ويتصوره البعض تلميذاً مشاغباً يمد لسانه لجميع المدرسين، ويتصوره البعض مراهقاً سياسياً يرمي الحجارة على شبابيك كل المدن بما في ذلك ايرلندا والفيليبين ، ويتصوره البعض ولداً خارجاً على طاعة أبويه وتقاليد القبيلة وآداب الأكل بالشوكة والسكين.
إن معمر القذافي ليس زعيماً كلاسيكياً ليناقش بطريقة النقد الكلاسيكي ، وليس تمثالاً محدد القسمات في متحف الشمع العربي.
إنه ظاهرة استثنائية ، كالبرق، والرعد، ورياح الخماسين... وعلى هذا الأساس يجب أن ندرسه.
وكتابتي عن القذافي لا تحمل أي معنى من معاني الرشوة، فأنا لا أحترف رشوة الحاكمين ، ولا أتقن فن التبخير. كل ما في الأمر أن الرجل يشغل بالي كما ينشغل بال المؤلف بمواقف أشخاص روايته، وسلوكهم وأبعادهم النفسية.
القذافي أشبه بممثل متميز الشخصية، رفض النص المكتوب في السيناريو، وبدأ يخترع كلاماً من عنده.
إن الكلام القديم لا يعجبه. لذلك تخانق مع المنتج، والمخرج، ومهندسي الديكور، وصانعي الماكياج.. وطلب من الجمهور أن يسترد ثمن تذاكره، لأن السينما كلها.. أوَنطة.. بأوَنطه.."

والقذافي حين يخالف تقاليد المسرح العربي، ويتخانق مع أفراد فرقة "حسب الله" ، فإنه لا يفعل ذلك بدافع المشاكسة، أو الرغبة في الشهرة ، أو تأسيس فرقة مسرحية لحسابه. فزهده في الحكم معروف لدرجة أنه يهدد بالإستقالة من رئاسة الجمهورية بعد كل وجبة طعام يتناولها.

معمر القذافي يفكر بطريقة أخرى . هذا كل ما في الأمر. وفي رأيي أن العرب في حاجة إلى "من يفكر بطريقة أخرى". المهم أن الرجل مقتنع بوجهة نظره، ومأخوذ بها كما يؤخذ المتصوف بكشوفاته ورؤاه الداخلية.

ثم إن الرجل لا يستحي بتفكيره. فهو مستعد، في أي وقت، أن يجادلك بوجهة نظره، ويستمع إلى وجهة نظرك، بروح رياضية نادرة، ورغبة في المعرفة لا ترتوي.

وهذا العطش إلى المعرفة هو الذي دفع معمر القذافي إلى دعوة نخبة من المفكرين العرب إلى ليبيا ليناقشوه ويناقشهم في شؤون الفكر والسياسة، وهو الذي دفعه إلى الدخول في حوارات طويلة مع كل التنظيمات السياسية والشعبية والنسائية والنقابية في مصر.

طبعاً.. كان بإمكان القذافي أن يبقى في مكتبه في طرابلس، ويصنع الوحدة بالتلفون، ولكنه أراد أن "يسمع" و "يرى" قبل أن يقرر. وتلك هي طريقة الباحثين عن الحقيقة.

وبعد... قد لا نلتقي مع الرئيس القذافي في فكره الديني، وفي عدائه الشديد لليسار، وفي تصوره الغريب للثورة الثقافية ، وفي قناعته بأن مكان المرأة هو البيت لأن تركيبها الفيزيولوجي لا يسمح لها بأن "تنط" من الطائرة بالباراشوت، ولكن هذا لا يمنعنا من عشق طفولته، وصدقه، وبراءته.

صحيح أن معمر القذافي يقود دراجته النارية بأقصى السرعة في شوارع المدن النائمة، ويستعمل "الكلاكسون" في الساعات المحظور استعماله فيها، ويكتب بالطباشير الملونة كلاماً غريباً على كل الأبواب...

كل هذا صحيح ، ولكن الصحيح أيضاً أن المدن العربية، التي لم تنجب منذ زمن بعيد أصبحت في حاجة إلى صوت يحمل إليها الفرح والمتاعب ، ويرمي من النافذة نصف أثاث البيت العتيق ... الذي نخره السوس.

٢٣ – ٧ – ٧٣

مصر تريد فولاً وطعمية ..
لا رسائل غرامية..!

لو كنت مكان الرئيس أنور السادات لأوقفت المدعو حاتم الطائي عند وصوله إلى مطار القاهرة الدولي، وأحلته للنيابة العامة بتهمة تزوير التاريخ، وانتحال صفة الكرم الكاذب...
ولو كنت مكان الرئيس السادات لشطبت من كتب التاريخ في المدارس المصرية إسم هذا الرجل الذي استثمر لحم ناقته ألفاً وخمسمئة سنة ليمارس علينا أعمال النصب والإحتيال...
نعم، أيها السادة، إن حاتم الطائي الذي قرأنا عن كرمه الخرافي، وعطائه الأسطوري، وعن النار التي كان يوقدها حتى يأتي إليه الضيف ، وعن الناقة التي كان يذبحها إذا فاجأه الضيف ، حاتم الطائي هذا .. قد أعطاكم عمره من زمان...

لم يعد هناك حليب .. ولا مَن يحلبون..
ولا ناقة .. ولا مَن ينحرون..
ولا نار .. ولا مَن يوقدون..

هل حاتم الطائي كذبة تاريخية كبرى ؟
هل هو شخصية فولكلورية كجحا اخترعناها لنسلي بها أطفالنا قبل النوم؟
هل هو شطحة من شطحات المبالغة لجأ إليها المؤرخون العرب لخلق بطل من ورق؟
أم هل كان حاتم مواطناً عربياً من قبيلة طي .. ثم تحول مع الأيام إلى مواطن شحيح من اسكوتلاندا ؟..

مصر تضع يدها على بطنها من قسوة الجوع..
مصر ترهن أساورها .. وضفائرها .. وملاءتها .. وتمد يديها إلى شبابيك سيدنا الحسين طالبة المدد...
ولا أحد يقرأ دموع مصر .. ولا أحد يرى جراح مصر.. ولا أحد قلبه على مصر..
الأميركان يذهبون إلى مصر سائحين..

والعرب يذهبون إليها (شمّامي هواء .. قطافي ورد(...
يحملون جنيهاتهم المهربة .. وشهواتهم .. وغلاظاتهم .. وقلقلة قافاتهم .. ويحرثون شوارعها ، وفنادقها ، وزرقة سمائها، وأجساد نسائها ، ومواضع كبريائها..
لا أحد يرى نزيف مصر..
لا أحد يسمع صدرها المثقوب بالسعال..
لا أحد يبصر كيف يبكي النخيل في عينيها الخضراوين..
فمصر عند العرب هي فندق شيراتون، وهيلتون، وشبرد، ونجوى فؤاد، وسهير زكي... وبقية الخصور والأرداف التي لا أتذكر أسماءها...
هي الجارية التي ترقص على موائد العرب..
والراقصة التي تزف أولادها في الأعراس..
والمغنية التي تحيي لهم الليالي الملاح...

وبدلاً من أن يدفع العرب الجزية لمصر لأنها حمت أرضهم وأرزاقهم وأولادهم وأعراضهم من الإغتصاب.. نجدها تدفع الجزية للعرب وهي تبتسم...
نجدها تتسول الشاي، والطعمية، والفول المدمس، ورغيف العيش بينما أثرياء العرب يقامرون في كازينو المقطم.. ويتجولون بسياراتهم الشاهانية (اسكندية – إدخال موقت) في حين تمشي أوتوبوسات مصر عل ثلاث عجلات.. ويمشي الشعب المصري متكئاً على كتف الله...
وبدلاً من أن يقبّل العرب يد مصر من الوجه والقفا .. لأنها حاربت بالنيابة عنهم، وجاعت وعطشت بالنيابة عنهم، نجدهم يتوقعون من مصر أن تقبل أيديهم، وتسبح بحمدهم، وتمسح أطراف عباءاتهم المقصبة..
كل هذا .. ومصر لا تفتح فمها، ولا تسمح لها كبرياؤها أن تعترف بحزنها وجوعها ومتاعبها، ولا تسمح لها أخلاقها وأصالتها أن تقول لعشاقها الكثيرين أن حجرتها التي تسكنها في (شبرا البلد) واقعة تحت الحجز .. لأنها تأخرت عن دفع أجرتها...
إن مصر شبعت من باقات الزهر وقصائد الشعر التي يحملها إليها عشاقها العرب. شبعت من المدائح والنياشين وبرقيات التهنئة في ذكرى العبور المجيد..
إن مصر بكل اختصار تريد أن تحاسب البقال .. وتدفع أجرة غرفتها..

ربما كانت مصر تستحي أن تقول إن غرفتها محجوزة .. وإن البقال السوفياتي يطرق بابها كل

صباح مطالباً بتسديد الفاتورة .. فاتورة طائرات الميغ ، وصواريخ سام التي ألقيت على أرض معركة تشرين..

لذلك أسمح لنفسي أن ألفت نظر الإخوان العرب الذي يدعون عشق مصر إلى أن غرفة حبيبتهم محجوزة .. وأساورها مرهونة .. وأثاث بيتها مطروح للبيع في المزاد العلني .. فإما أن يواجهوا مسؤولياتهم برجولة .. وإما أن يأخذوا رسائلهم الغرامية وينسحبوا من مصر غير مأسوف عليهم..

أما أن تبقى مصر بالنسبة للعرب مجرد (وصلة طرب) .. أو مسرحية هزلية في شارع عماد الدين .. أو رحلة نيلية إلى الأقصر وأسوان .. فهذا في نظري منتهى الاستغلال لأرض مصر، وشعب مصر، وطيبة مصر، وآلام مصر...

إن مصر هي (بروسيا) العرب .. لا هونكونغ ، أو سنغافورا، أو مونت كارلو العرب..

ولقد كان بإمكان الرئيس جمال عبد الناصر – لو أراد – أن يجعلها بخمس دقائق مونت كارلو ثانية.. لا همّ لها سوى التزلج على الماء .. نهاراً .. ولعب الروليت ليلاً..

ولقد كانت الولايات المتحدة في عام ١٩٥٢ على أتم استعداد لإعطاء عبد الناصر كل ما يريده من أجل تحقيق هذا الحلم الصغير..

ولكن عبد الناصر كان كبيراً..

والكبير لا يحلم أحلاماً صغيرة..

ولا يزال بإمكان الرئيس أنور السادات – إذا أراد – أن ينزع عن مصر صفة الدولة المحاربة ، ويحول ألوف الملايين التي تنفق على الآلة الحربية المصرية إلى قطاع الإستهلاك فلا يضطر الوطن المصري للوقوف ثلاثة أيام في الطابور للحصول على قطعة صابون .. أو أوقية شاي..

وهكذا كان لا بد لمصر من أن تختار بين الموقف السهل والموقف الصعب .. بين الزمن الضيق والزمن العريض.. بين أن تكون اسبارطة .. أو أن تكون جزيرة كابري..

وطبعاً .. إختارت مصر قدرها الإسبارطي..

وفي إسبارطة كما في جميع الدول المحاربة، يأتي المقاتلون في المرتبة الأولى، ويقف الإقتصاد القومي خلفهم بكل قدراته. أما الذين لا يقاتلون أو لا يذهبون إلى الجندية فيدفعون الضرائب وبدل الخدمة العسكرية.

وهذا المبدأ يجب أن يطبق فوراً في العالم العربي.

الذين لا يقاتلون يدفعون لمن يقاتلون.

والدفع للمقاتلين يجب ألا يأخذ شكل التبرع .. أو الصدقة .. أو الزكاة .. وإنما يجب أن ينظم تنظيماً ضرائبياً لا يهرب منه كبير ولا صغير..

لو كنت مكان الرئيس السادات لجمعت العرب في غرفة واحدة وقلت لهم بالحرف العريض ما يلي:
أنتم تملكون مالاً ولا تقاتلون.. ونحن نقاتل ولا نملك مالاً.. ومصر لا نستطيع أن تسكن إلى ما شاء الله في غرفة مرهونة.. فإما أن تدفعوا أجرة الغرفة أو ستضطرون مصر إلى الإنتقال نهائياً من الحي العربي.. إلى بلاد الجان.. وأحضان كسرى انو شروان...

٢٠ – ١ – ١٩٧٥

شرائح فلسطينية .. بالمايونيز

آخر ما توصل إليه الطهاة العرب في فن الطبخ، طبق جديد أطلقوا عليه اسم : (شرائح فلسطينية .. بالمايونيز.(..
ولمن له اهتمامات بالتدبير المنزلي، ولمن له ولع بتحضير أطباق فاتحة للشهية، هذه هي الراشيتة:
-١المقادير:
رطل ونصف من اللحم الفلسطيني المجلد (اللحم الفلسطيني الطازج مفقود منذ ١٥ أيار ١٩٤٨) .. بصلتان كبيرتان. كباية سمن عربي ..ملعقتا طحين .. فلفل .. وقرفة .. وشطة حمراء..
-٢الطريقة:
يقطع اللحم الفلسطيني إلى شرائح رقيقة .. ويراعى في عملية التقطيع أن تكون الشرائح مأخوذة من كل أجزاء الجسد الفلسطيني.. ويستحسن أن تكون الأضلاع من قطاع غزة .. والفخذ من

الضفة الغربية .. واللسان من الضفة الشرقية..
توضع (الطبخة) على نار الحطب لمدة ثلاثين عاماً .. ويضاف إليها كل عام .. قليل من النبيذ ..
إلى أن تذوب أنسجة اللحم ذوباناً تاماً .. بفعل النار .. والنبيذ .. ومرور الزمن..
يسكب الخليط في طبق كريستوفل .. ويزين بالبقدونس ، والفجل .. وخطابات الترحيب .. ويقدم
للمدعويين بعد أخذ مجموعة من الصور التذكارية .. للعشاء الأخير..

لم أكن بين المدعويين إلى العشاء الأخير..
فأنا لا أملك ربطة عنق سوداء .. ولا حذاء لماعاً .. ولا وجهاً من الشمع أستعمله في المناسبات الرسمية..
ولكن الذين حضروا الحفلة ، وذاقوا الطعام، قالوا لي إن طعم اللحم الفلسطيني كان شديد
المرارة .. وإنه رغم مرور ثلاثين عاماً على وضعه على النار .. بقي نيئاً .. وإن ديكور
البقدونس ، والنعناع ، والفجل الأحمر .. لم يكن كافياً لمنع الفلسطنيين من أن يخرجوا بملابسهم
المرقطة، وكلاشينكوفاتهم، من داخل الطبق اليومي.

لم أكن حاضراً حفلة (ختان) .. فلسطين.
ولكن رئيس الخدم وصف لي كيف كانت عيون الأطفال الفلسطينيين تعوم على سطح النبيذ
الأحمر .. وكيف كانت أصابعهم تنقر على زجاج الكؤوس .. وكيف كانت شرائح اللحم الفلسطيني
تتجمع من ركام المخيمات المضروبة ، وتتعانق، ويكمل بعضها بعضاً.. كما تتلاقى أجساد العشاق
يوم القيامة..

في العشرينات من هذا القرن، كان الإستعمار القديم يمزق العالم العربي .. ليحكم..
في السبعينات من هذا القرن ، انتقلت وظيفة الإستعمار إلينا ..
صار العربي يمزق العربي .. ليحكم..

أصبح لدينا فلسطيني أبيض .. وفلسطيني أحمر .. وفلسطيني بنفسجي .. إلى آخر قائمة ألوان الطيف..
ومدن فلسطين الطيبة .. الوديعة .. المغلوبة على أمرها هي الأخرى أصبحت مقسمة إلى فئات..
فمثلما هناك برلين شرقية .. وبرلين غربية..
سوف يكون لنا عكا شرقية وعكا غربية .. ورام الله شرقية ورام الله غربية .. وعريش شرقية

وعريش غربية..
وبالطبع سيكون هناك نقاط حدود .. ومراكز أمن عام . وجمارك ، ودوريات تفتيش .. وبيارق عربية من الحرير الأصلي ترفرف على الجانبين..
أي أنك لكي تشتري قطعة صابون من نابلس .. فعليك أن تجتاز بوابتين .. وتضرب سلاماً لبيرقين .. وتتكلم اللغة العربية بلهجتين .. وتنطق أمام حرس الحدود بالشهادتين..

عرف عن العرب أنهم بارعون في كتابة الخط الكوفي وصناعة الفسيفساء .. كما عرف عنهم أنهم استطاعوا أن يتوصلوا إلى تشكيلات لونية وزخرفية تصل إلى حد الإعجاز..
لقد كنت دائماً (أدوخ) عندما أدخل قاعات قصر الحمراء في غرناطة.. وأتساءل كيف استطاعت هذه الأصابع العربية الماهرة تحويل الحجر إلى دانتيل .. والآيات القرآنية وقصائد الشعر إلى مطرزات جميلة أين منها مطرزات شانغهاي وفلورنسه والبندقية..
واليوم تعاودني (الدوخة) مرة أخرى .. وأنا أقرأ عن) الفسيفساء الفلسطينية.(
من كان يتصور أن الفلسطينيين يمكن أن يتحولوا ذات يوم إلى سيراميك .. على يد مهندسي السياسة العربية ومصممي ديكوراتها ؟

للمرة الأولى أسمع أن هناك (أجناساً) فلسطينية لا جنسا واحداً . وللمرة الأولى أسمع أن خصائص النوع الفلسطيني ليست خصائص موحدة..
وللمرة الأولى أسمع أن جمجمة إنسان القدس هي غير جمجمة إنسان حيفا .. وأن عدد أضراس إنسان الضفة الغربية يزيد على عدد أضراس إنسان الضفة الشرقية.. وأن اتساع الحوض لدى المرأة النابلسية مختلف عن اتساع الحوض لدى المرأة الغزاوية.
إن معلوماتي الطبية ضعيفة.. وليس لي اطلاع واسع على علم السلالات والأنواع .. لكنني أعرف بحكم تجربتي وصداقاتي ، أن أصابع اليد اليمنى لغسان كنفاني ، تشابه في طولها .. ونحولها .. وحرارتها .. وتشنجها .. أصابع اليد اليمنى لكمال ناصر .. وأن الهياكل العظيمة لجميع ثوار العالم تأخذ بعد الموت شكلاً واحداً...

إن كل مطعم عربي يقدم لزبائنه (الشرائح الفلسطينية بالمايونيز (.. هو مطعم يبيع اللحم الحي في السوق السوداء..
إن الثورة الفلسطينية لا تؤكل بمثل هذه السهولة..

ولا أحد .. لا أحد.. لا أحد .. يستطيع أن يدفنها تحت طبقة من المايونيز..

٢٩ – ٧ – ١٩٧٤

إلى المرحوم والد الولايات المتحدة

تتصرف أميركا مع العرب في هذه الأيام الأخيرة كما لو كانوا من مخلفات المرحوم والدها..
ونحن لا نعرف عن المرحوم والد الولايات المتحدة الأميركية، ولا نعرف شيئاً عن حسبه..
ونسبه.. وشجرة عائلته.. ولا نتذكر أنه ترك مالاً أو عقاراً أو ذرية من البنين والبنات في أرض الحجاز، أو في الكويت ، أو في كركوك..
كما لا نتذكر أن المرحوم .. صاهرنا، أو ناسبنا ، أو تزوج أمنا فصار عمنا.. بحيث يسمح لنفسه بالتدخل في شؤوننا المنزلية، وقضايانا العالية.. بما في ذلك عدد الأرغفة التي نأكلها، وأجرة المنزل الذي نسكنه، وشكل الزوجة التي سنتزوجها، وأسماء الأولاد اللذين سنرزق بهم..
ثم نحن لا نتذكر أن المرحوم والد الولايات المتحدة الأمريكية، كانت له تجارة في قديم الزمان مع عبد المطلب وهاشم، وقريش ، حتى يأتي بعد ألفي عام ليحاسبنا على ثمن الجياد العربية التي ربيناها.. وأشجار النخيل التي زرعناها.. وبراميل النفط التي بعناها..
لذلك فوجئنا بالرئيس الأميركي، حين صعد إلى منصة الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، وأفهمنا بغير مجاز ولا تورية ..أنه لن يسمح لحفنة من البدو.. ينقعون أرجلهم في بحر من البترول أن يهدموا حضارة العالم...
أما أن نكون بدوا.. فذلك امتياز كبير، وعلامة تفرد لنا في هذا العصر الذي أصبح فيه التمدن معادلاً للتقل، والانتحار، والهيرويين، والرعب النووي، والتلوث..
إن البداوة شجرة تنبتها الصحراء، وهي في ذروة صفائها الروحي، وفي أحسن لحظات الوجد والتصوف والمكاشفة مع النفس. والبدوي هو هذا الإنسان الذي تتجلى فيه أخلاق النخلة ، وارتفاع قامتها، وعنفوانها، وكرمها، وفيض مروءاتها.
أما أننا ننقع أرجلنا في آبار الظهران، والأحمدي ، وكركوك، فذلك حق طبيعي يمارسه كل من

يملك حماما في منزله..
ولو أن العرب نقعوا أرجلهم في نهر المسيسيبي ، أو نهر الهودسون، أو أخذوا (دوشاً) في مسبح من مسابح فلوريدا.. لكانت الولايات المتحدة على حق في صراخها واحتجاجها..
أما أننا نعمل على تخريب الحضارة وإسقاطها . فهو كلام سائب.. ويحتاج إلى حوار هادئ وصريح.
قبل كل شيء نريد أن نتفق مع الرئيس الأميركي على مفهوم كلمة حضارة..
نحن نفهم من الحضارة كل جهد يهدف إلى الإرتفاع بمستوى البشر، وتحقيق أفضل الشروط الإنسانية لهم.
فالحضارات اليونانية، والهندية، والصينية، والفرعونية، والبابلية ، والفينيقية، والعربية ، حضارات استحقت اسمها لأنها قدمت للإنسان عصارة عقلها وفلسفتها وفنونها، وأضاءت له طريق الخير والمعرفة والسعادة.
وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبار التفوق الصناعي والتكنولوجي في الولايات المتحدة، وأوروبا، تفوقاً حضاريا أو حضارة، بالمعنى الأخلاقي والفلسفي لهذه الكلمة..
فأبنية الكونكريت، والجسور المعلقة، والأوتوستر ادات، وناطحات السحاب، وصناديق (البوب كورن) .. وعلب (الجوك بوكس) .. والآلات التي تقدم لك قطعة الهامبورغر وتمضغها بالنيابة عنك.. وتعطيك زجاجة الكولا وتشربها هي... وكل الماكينات الالكترونية التي تفرم الوقت ولحم الانسان.. كل هذه الإنجازات هي خربشات على دفتر الحضارة، لا حضارة.
ولما كانت السيرة قد انفتحت.. فإننا نود أن نسأل المتحضرين على أكتاف مَن قامت حضارتهم.. ومن لحم من أكلت .. ومن دموع من شربت؟
إن حضارة أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر، هي سلسلة من السرقات الموصوفة، وكبر عملية نهب مسلحة عرفها التاريخ..
فاللوردات الانكليز ظلوا مئة سنة وأكثر يشربون شاي ليبتون في منازلهم في حي مايفير في لندن.. ويلبسون جاكيتات الكشمير الفاخرة.. وقمصان اللينو المصنوعة من قطن مصر..
ويصنعون غلايينهم من عاج الهند..
كان اللوردات الانكليز يعتبرون أن ألفي مليون من سكان افريقيا وآسيا مسؤولون عن تقديم شاي الساعة الخامسة.. مع البسكويت.. لهم ولزوجاتهم وأولادهم..
كان أطفال الانكليز يترعرعون في الهايد بارك والريتشموند بارك على الزبدة .. والكاكاو..

وزيت السمك.. بينما كان أطفال الهند والصين وسنغافورة ، ومالطة، وعدن ، والسودان، ومصر ، لا يجدون الحليب في أثداء أمهاتهم...

هذه هي المعادلة اللا انسانية التي قامت عليها حضارة الغرب.. إنها علاقة بين العلقة والدم.. وبين الشاة وذابحها.. والبقرة وحالبها.. واللؤلؤة وسارقها...

إن الصدمة التي أصابت الفكر الغربي بعد حرب تشرين الأول ١٩٧٣ سببها أن الغرب قد تعود على السرقة حتى صارت السرقة بالنسبة إليه حقاً مكتسباً.. كما تعود على الخدمات المجانية بحيث يصعب عليه بعد ثلاثة قرون من الممارسات الاستثمارية ان يطالب بدفع أجور العمل.. فالعمل بالنسبة للفكر الغربي لا يزال ينقسم إلى قارتين: قارة للخدم ..وقارة للمخدومين..

والغريب أن الولايات المتحدة لم تحفظ مادة التاريخ جيداً.. ولم تستفد من التجربة البريطانية.. فهي لا تزال تعتبر العالم الثالث – ونحن من جملته – جارية سوداء .. أو Baby Sitter وظيفتها أن تسلي الأولاد ريثما يعود أصحاب البيت من السهرة..

وربما كانت البيبي سيتر في أميركا أحسن حالاً من الشعوب الآسيوية والإفريقية من حيث مستوى التعامل. فهي على الأقل تتمتع بحرية التصرف داخل المنزل الأميركي.. فتشاهد برامج التلفزيون، وتقرأ الصحف والمجلات، وتشوي قطعة) ستيك)، وتصب لنفسها كأساً من النبيذ، وتدخن بعد العشاء ما يعجبها من السجائر ..وحين يعود السيد والسيدة إلى منزل يدفعان لها الأجر المتفق عليه، ويوصلانها بالسيارة إلى منزلها، ويفتحان لها باب السيارة بكل لياقة وتهذيب..

أما الــ Baby Sitter العربية، فوظيفتها أن تخدم أميركا لوجه الله تعالى، وعلى روح الأجداد.. دون أن تتمتع بأية امتيازات فهي تأتي إلى بيت مخدوميها ماشية.. وترجع ماشية .. ولا يحق لها أن تمد يدها إلى التلفزيون، أو إلى السجائر.. أو إلى الجرائد.. كما لا يحق لها أن تأكل (الستيك) .. لأن الستيك عمل من أعمال الحضارة. والعرب لا يزالون من أكلة القمح والذرة والحبوب..

ولأن العرب لا يزالون ينتمون إلى حضارة الحنطة .. فقد قرر الرئيس الأميركي أن يعاقب (البيبي سيتر) العربية بمنع مؤونتها اليومية من الخبز.. لأنها رفعت أجرها اليومي من دولارين .. إلى أحد عشر دولاراً..

وعبثاً حاولت (البيبي سيتر) العربية إقناع الرئيس الأميركي .. أن قوانين العمل تغيرت .. وأفكار العمال تغيرت .. وأن صاحب السلعة هو الذي يحدد سعرها تبعاً لحاجاته ولمستوى الأسعار العالمية، وأن دول العالم الثالث لم تناقش في يوم من الأيام مع أميركا ، أسعار بضائع جنرال

موتورز.. أو جنرال الكتريك.. ولم تعترض على أسعار السيارات، والثلاجات، والغسالات، ومكيفات الهواء، وألوف السلع الأميركية التي تحاصر حياتنا اليومية ابتداء من إبرة الخياطة.. إلى طنجرة البريستو.. وعلبة التشيكلتس..

إن الإنسان العربي ليشعر بالزهو حين يفتح جريدة (التايمز (اللندنية، ويقرأ فيها هذه الجملة: (إن الأجيال القادمة سوف تتذكر سنة ١٩٧٣ كتاريخ سيطر فيه العرب على العالم الصناعي(..
مئة سنة وأكثر والغرب يلعب معنا (البوكر (ونحن نخسر ..
يغش في اللعب.. ونحن نخسر..
يسرق آخر قرش في جيوبنا.. ونرهن محاصيلنا.. وعقاراتنا وضفائر بناتنا .. ونخسر..
فهل تسمح الولايات المتحدة ودول أوروبا الصناعية .. أن نتغلب عليها مرة واحدة فقط..
ولكن بشرف...

١٤ – ١٠ – ١٩٧٤

مزاد علني لبيع كاديلاك..
وشراء عقل..

لا نذيع سراً إذ قلنا إن العرب أصبحوا أباطرة المال في الكرة الأرضية، وإن ما يملكونه من نقد جامد وسائل، لا يستطيع البحر أن يغرقه .. ولا السمك أن يأكله..
لذلك فإن سماسرة الأراضي في العالم يطاردونهم ليلاً ونهاراً ليبيعوهم جزيرة في أميركا .. وبرجا في باريس .. وقصراً كان يسكنه هتلر قرب فرانكفورت .. وألف هيكتار في مقاطعة بريتانيا .. ومغطساً من المرمر الإيطالي كانت تتنشف بها بريجيت باردو.. في الريفييرا الفرنسية .. وعقارات أخرى فيها من كل فاكهة زوجان.. وحور مقصورات في الجنان..

هذا كله من فضل ربي.. لكن ما أخشاه أن يتمكن أحد السماسرة الخبثاء .. أن يبيع ثرياً من أثرياء العرب (ترامواي الجيزة). مع كمساريه.. وركابه .. وسكته الحديدية ..وتضطر جامعة الدول العربية أن تتدخل لدى الأنتربول.. لإعادة الترامواي إلى مصلحة النقل المشترك..

طبعاً .. يسعدني كعربي أن يصبح العرب أغنياء بعد فقر .. وميسورين بعد شدة .. وأن يكون بوسعهم أن يشتروا أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية .. ابتداء من القمر.. إلى المريخ .. إلى زحل .. على عطارد...
ولا أخفيكم أنني أشعر بغرور الطواويس وزهوها .. وبعنفوان قومي يجتاحني .. حين أرى الدنانير العربية تتساقط كالأمطار الإستوائية في شوارع أوروبا وأميركا .. والناس يلهثون خلفها ككلاب الصيد..
ومن فضل ربي أيضاً .. أنه خلصنا من مرحلة حلب لبن الناقة.. ومرحلة (يا نخلتين في العلالي بلحمهم دوا (..ومرحلة (وأحبها .. وتحبني.. ويحب ناقتها بعيري(..
إن انتقال الإنسان العربي من مرحلة أخذ (البقشيش) إلى مرحلة إعطائه.. حدث لا يقل أهمية عن اكتشاف أميركا.. وفتح قنال السويس.. واكتشاف الدكتور فليمينغ لعقار البنسلين..
فنحن لم ننس بعد العهد البشع الذي كانت كلمة (البقشيش) فيه هي المرادف اللغوي للتسول .. والإنحناء أمام كل سائح أزرق العينين.. يلبس قبعة.. ويحمل كاميرا.. ويركب على ظهر الجمل متغطرساً ..ومتعجرفاً .. كانه يركبنا نحن..
واليوم، جاء دور العرب ليجلسوا على سنام العالم الغربي.. ويمدوا أرجلهم على طولها.. ويأخذوا الصور التذكارية لمناسبة ركوبهم للمرة الأولى في حياتهم جملاً أجنبياً يتكلم لغة الخواجات.. ويلبس ملابس الخواجات...

إن ممارسة السادية ليست جزاً من طبيعتنا ، وإذلال الآخرين بالمال ليس من شيم النفس العربية. فقد أوصانا أنبياؤنا ورسلنا بفضيلة العفو عند المقدرة..
ولكننا من طول ما عانينا من سادية الإستعمار ، وجشع رأس المال الأوروبي، أصبحنا نشتهي أن نمارس – ولو ليوم واحد – لذة التشفي .. ورؤية العالم الرأسمالي والصناعي والإحتكاري.. يحمل كشكول الشحاذة .. ويمدّ يده إلينا طالباً بقشيشاً .. أو حسنة لوجه الله...

وقد شاء الله أن لا يخيب أملنا ، فسمح لنا في شتاء عام ١٩٧٣ أن نرى هذا اليوم الذي استطاع

فيه بترول العرب وأرصدتهم أن يهزوا اقتصاد العالم من جذوره. وأن يحولوا العملات الأجنبية إلى أوراق في مهب الريح.
إن رأس المال العربي لعب بغير شك دوراً ممتازاً وشجاعاً في تغيير نظرة العالم إلينا .. وأحدث تحولات غير منتظرة في سياسة الدول الأوروبية والآسيوية والإفريقية نحونا .. كما أنه دفع بالقضية الفلسطينية إلى الصفوف الأولى من مشاكل العالم، وأعطاها الأولوية في المحافل الدولية، ونقلها إلى بؤرة الضوء .. بعد أن ظلت ثلاثين عاماً في دائرة التعتيم..

كل هذه الانتصارات العربية والفلسطينية التي تحققت في مدى عام واحد ، تثبت أن عقل العالم عقل مصلحي .. وحسابي .. وتجاري ..من طراز أول .. وأن مخاطبة العالم بالعواطف، والمعلقات، والشعر.. والمثل العليا – كما تعودنا أن نفعل خلال نصف قرن – هي صراخ في واد سحيق .. وضرب على طبل مثقوب...

لذلك يحسن بالذاهبين إلى مؤتمر القمة في الرباط.. أن يتركوا دواوين الشعر وراءهم.. وقصائد الشنفري والنابغة الذبياني.. ويأخذوا معهم مجموعة من كتب الحساب.. وبيانات دقيقة بثروات العالم العربي وأرصدته الخرافية .. التي لا يغرقها البحر .. ولا يأكلها السمك...
قد تستغربون مني كشاعر أن أقول مثل هذا الكلام ..ولكن الشعر - على ارتفاع صوته، وشفافية رؤياه – لم يستطع أن يخترق قلب العالم المصفح بالإسمنت المسلح.. ولا أن يهزّ شعرة واحدة، أو عصباً من أعصاب أميركا وأوروبا الواقعتين تحت تأثير المخدر الاسرائيلي..
إن مؤتمر الرباط المنعقد حالياً (٢٦ تشرين الأول ١٩٧٤) هو أول مؤتمر قمة يعقده للعرب، وبين أيديهم أعظم حرب اقتصادية خاضوها إثباتاً لوجودهم، ودفاعاً عن أنفسهم...

على أن للمال العربي عمراً يطول أو يقصر كأعمار الناس.. والمخزون النفطي لا يمكن أن يبقى متدفقاً إلى أبد الآبدين .. فهو نار تأكل بعضها شيئاً فشيئاً..
لذلك لا بد من وضع مخطط سريع لتحويل المخزون النفطي.. في باطن الأرض.. إلى مخزون عقلي في رأس الإنسان .. بحيث حين تجفّ آخر قطرة نفط في أحشاء الأرض، يكون العقل العربي قد أصبح في وضع حضاري وعلمي يسمح له أن يكون طاقة بديلة .. أو رديفة...
والأرصدة العربية هي الأخرى، يجب أن لا تبقى جثثاً محنطة في مصارف العالم، وإنما يجب أن تكون قادرة خلال السنوات الباقية من هذا القرن على تغيير خريطة هذه المنطقة.. تعليماً ،

وتصنيعاً، وتخطيطاً، وتعميراً، وتحديثاً..

معنا خمس وعشرون سنة فقط.. لبيع جميع سيارات الكاديلاك التي نملكها .. وشراء عقل...

٢٨ – ١٠ – ١٩٧٤